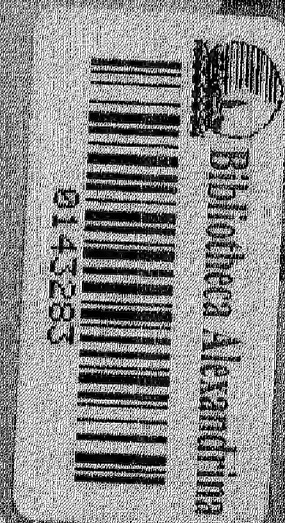
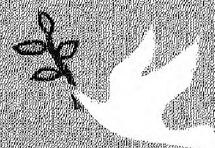


في الفلسفة الطبيعية

للجاحظ



دراسة و تحقيق

د. محفوظ عزام

في

الفلسفة الطبيعية

عند الجاحظ

الكتاب : في الفلسفة الطبيعية عند الجاحظ

الطبعة الأولى

١٩٩٥م / ١٤١٦هـ

جميع الحقوق محفوظة

في الفلسفة الطبيعية

رقم الإيداع : ٩٥/٥٩٢٢

I.S.B.N.977-5502-13-6

الناشر : دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع

في

الفلسفة الطبيعية

عند الجاحظ

د. محفوظ علي عزام

أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد
كلية الدراسات العربية
جامعة المنيا

دار الهدى
للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذى أعاننى على إنجاز هذا البحث المتواضع، والصلاة والسلام على الرسول الشافع. وبعد.

فهذا بحث يتناول جانباً مهماً لدى مفكر كبير من مفكرى الإسلام وهو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الذى عاش في القرنين الثاني والثالث الهجريين. هذا الجانب هو الفلسفة الطبيعية؛ فالجاحظ - كما يتضح من مؤلفاته العديدة - كان مهتماً بدراسة جوانب الطبيعة المختلفة، وفي مختلف ظواهرها، سواء كانت جمادات أو معادن أو نباتات أو حيواناً أو إنساناً. كما كانت دراسته تقوم على الملاحظة والتجربة، في محاولة منه لاستنباط القوانين التى تخضع لها الطبيعة، ولإبراز حكمة الله تعالى في الخلق والتكوين. وهذا هو معنى أن "الجاحظ" فيلسوف طبيعي، إذ ليس معنى القول بالفلسفة الطبيعية عند الجاحظ، أن الجاحظ يقول إن المادة مكتفية بخصائصها الطبيعية ومكتفية بنفسها، فهذا

قول الدهريين والطبائعيين سواء أكانوا قدماء أو محدثين . والجاحظ يبرأ إلى الله من هذا الفهم وذاك القول ، بل إنه شن حملة عنيفة على الدهريين والطبائعيين وقال بأن الله عز وجل هو علة الكون وسبب الأسباب وأن كل شيء خلق بحكمة ولحكمة أرادها له الخالق جل وعلا .

والحق أن أصالة أبي عثمان تتجلى في أبحاثه في هذا الجانب المهم . وتتجلى هذه الأصالة عند ما نقارن بينه وبين فيلسوف كبير من القدماء وهو "أرسطو" . ومن هنا جاءتني فكرة هذا البحث ، لأثبت أصالة هذا الرجل في حقل الفكر الإسلامي ، وفي جانب لم يهتم به الباحثون كثيراً ، ولعل ما حفزني لإثبات هذه الأصالة أنني قرأت قولاً لعبد القاهر البغدادي في كتابه : الفرق بين الفرق يقول فيه إن الجاحظ قد " سلخ معاني كتاب الحيوان لأرسطاطاليس ، وبعد البحث وجدت أن هذا القول خطأ من البغدادي وليس قائماً على برهان علمي صحيح ومن ثم لا يمكن قبوله بحال من الأحوال .

ولا أستطيع - بطبيعة الحال - الادعاء بأنني أحصيت كل ما قاله الجاحظ في طبيعياته ، فهذا أمر

عسير المنال نظرا لضخامة ما كتبه الجاحظ وما أجراه من دراسات وأبحاث في هذا المجال، ومن ثم اكتفيت بأن ألقى نظرات على هذه الفلسفة، ولكني أعتقد أنها نظرات ليست عابرة، وإنما هي نظرات فاحصة متأنية تعبر عن مقصودي من هذا البحث.

على أية حال يجيء هذا البحث في ستة فصول بعد هذه المقدمة القصيرة. ولقد عالج الفصل الأول منها مكانة الجاحظ العلمية والفكرية وقواعد المنهج العلمي عنده، بينما تناول الفصل الثاني جوانب الفلسفة الطبيعية عند الجاحظ ومعنى هذه الفلسفة لديه. وفي الفصل الثالث حديث عن مفهوم الجماد أو الموات أو غير النامي، وما يتصل بهذا الجسم من مفاهيم فلسفية كالجزأ الذي لا يتجزأ والجوهر والعرض والمداخلة والمجاورة. أما الفصل الرابع فيعالج موضوع الحيوان عند الجاحظ متحدثا عن مصادر الجاحظ في علم الحيوان، والسبب في تأليفه لهذا الكتاب وهو معارضة كتاب الحيوان لأرسطو، وكذلك موردا مقارنات بين أرسطو والجاحظ في وصف بعض الحيوانات وما تفوق به كل واحد منهما على الآخر في بعض القضايا، وما تميّز به الجاحظ

على أرسطو، وموقفه منه. والفصل الخامس وإن كان مكملًا للرابع من حيث إنه متعلق بالحيوان إلا أنه يتناول إبداعات الجاحظ في مجالين مهمين وهما علم نفس الحيوان ونظرية التطور، وهما من العلوم الحديثة، وبالتالي يفهم من هذا أن الجاحظ كان سابقا لعصره وما بعد عصره. أما الفصل السادس والأخير فهو عن الإنسان عند أبي عثمان، فيتناول مفهوم الإنسان عنده، ومكانته، وكذلك العقل والنفس، وما تميز به الجاحظ في هذا المجال، وأيضا تناولته للإنسان ككائن اجتماعي، وأخيرا ما يتضح لدى الجاحظ من نزعة إنسانية، نحن في أمس الحاجة إليها في وقتنا الحاضر .

فإن كنت قد وفقت في معالجة هذه القضايا فمن الله التوفيق، وإن كانت الأخرى فحسبى أنى حاولت. هذا والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

د. محفوظ علي عزام

١٩٩٥/١/٢٦

الفصل الأول

مكانة الجاحظ ومنهجه

أ - مكانة الجاحظ العلمية والفكرية:

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، متكلم وفيلسوف ولغوي وعالم طبيعي وأديب ومؤلف قلما يوجد التاريخ بمثله. وإذا استثنينا خصوم المعتزلة من الحكم على مكانة الجاحظ فسوف نجد المادحين له قديما وحديثا أكثر من أن يحصوا .

ولا عجب في ذلك؛ فالجاحظ كان يجل القرآن والسنة والصحابة والتابعين حيث نجده يقول: "أحببنا أن نصير صدر هذا الباب كلاما من كلام رسول رب العالمين، والسلف المتقدمين؛ والجلّة من التابعين، الذين كانوا مصابيح الظلام، وقادة هذا الأنام، وملح الأرض - أي بركة الأرض - وحلي الدنيا، والنجوم التي لا يضل معها الساري، والمنار الذي يرجع إليه الباغي... وهم الذين جلبوا بكلامهم الأبصار الكليّة، وشحذوا بمنطقهم الأذهان العليّة، فنبهوا القلوب من رقدتها، ونقلوها عن سوء عاداتها، وشفوها من داء القسوة، وغبابة الغفلة، وداووا من العي الناضح ونهجوا لنا الطريق الواضح"(١).

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢ ص ٥ - ٦ .

وكان يرى أن كتب الله تعالى أفضل الكتب وليس كتب الزنادقة والملحدين؛ فكتب الله "أكثر من كتبهم نفعاً، وأشرف منها خطراً، وأحسن موقعا؛ كتب الله تعالى، فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كل حكمة، وتعريف كل سيئة وحسنة" (١). أما كتب الزنادقة فليس فيها "مثل سائر ولا خبر طريف، ولا صنعة أدب، ولا حكمة غريبة، ولا فلسفة، ولا مسألة كلامية، ولا تعريف صناعة، ولا استخراج آلة، ولا تعليم فلاحه، ولا تدبير حرب، ولا مقارعة عن دين، ولا منازلة عن نحلة، وجل ما فيها ذكر النور والظلمة، وتناكح الشياطين، وتسافد العفاريت، وذكر الصنديد، والتهويل بعمود السنخ.. وكله هذر وعيّ وخرافة، وسخرية وتكذب، لا ترى فيه موعظة حسنة، ولا حديثاً موقفاً، ولا تدبير معاش، ولا سياسة عامة، ولا ترتيب خاصة. فأى كتاب أجهل، وأى تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الإطاعة، والبخوع بالديانة، لا على جهة الاستبصار والمحبة، وليس فيه صلاح معاش ولا تصحيح

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ١ ص ٨٦ .

دين" (١).

إن الجاحظ متكلم مسلم مؤمن يدافع عن إسلامه وإيمانه بكل ما أوتي من قوة في قلبه وعقله وفكره ضد كل من يحاول الغرض من شأن الإسلام وعقائده، كل ذلك بأسلوب علمي رصين، ومن خلال ثقافة عصره الواسعة، ومن خلال ثقافته الإسلامية العميقة، وقدرة على استخدام المنطق السليم والبرهان العقلي الصحيح.

من أجل هذا عدّ الجاحظ شيخ المتكلمين حتى إن ثابت بن قرة يقول فيه: "ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس، أولهم: عمر بن الخطاب.. والثاني: الحسن بن أبي الحسن البصري.. والثالث: أبو عثمان الجاحظ - خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين" (٢).

وقد قال ابن نباتة عن الجاحظ إنه "إمام الفصحاء والمتكلمين، الذين ملأت الآفاق أخباره وفوائده حتى قيل: مما فضل الله تعالى به أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم: عمر

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ٥٧ - ٥٨ .

(٢) التوحيدي: المقابسات ص ٥٢ - ٥٦ .

ابن الخطاب بسياسته، والحسن البصري بعلمه،
والجاحظ ببيانته" (١).

ويقول عنه المسعودي - وهو أحد خصومه -
إنه "لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً
منه" (٢). وهي كتب "تعلم العقل أولاً، والأدب
ثانياً" (٣).

ويذكر ابن المرتضى أنه "لا يعرف كتاب في
الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وأنه حجة
لمحمد صلى الله عليه وسلم على نبوته غير كتاب
الجاحظ. وهذه كتبه في إثبات الرسالة وكتبه في
تصحيح مجيء الأخبار مشهورة" (٤). ويقول ابن
المرتضى في موضع آخر: "فمن قرأ كتاب عمرو
الجاحظ في الرد على المشبهة وكتبه في الأخبار
وإثبات النبوة وكتبه في نظم القرآن علم أن له في
الإسلام غناء عظيماً لم يكن الله عز وجل ليضيعه
له" (٥).

(١) ابن نباتة: سرح العيون بشرح رسالة ابن زيدون ص ٢٤٨ .

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ج ٤ ص ١٣٥ .

(٣) ابن خلكان: وفیات الأعيان ج ١ ص ٣٨٩ .

(٤) ابن المرتضى: طبقات المعتزلة ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٢

فالجاحظ هو نسيج وحده في جميع العلوم؛ "جمع بين علم الكلام والأخبار والفتيا والعربية وتأويل القرآن وأيام العرب، مع ما فيه من الفصاحة، وله مصنفات كثيرة نافعة في التوحيد وإثبات النبوة وفي الإمامة وفضائل المعتزلة وغير ذلك" (١).

ولهذا قيل عن مذهب الجاحظ إنه "مذبر بأشياء لا تلتقى عند كل إنسان ولا تجتمع في صدر كل أحد: بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ، وهذه مفاتيح قلما يملكها واحد، وسواها مغالِق قلما ينفك منها واحد" (٢). والجاحظ رائد في علم مقارنة الأديان ومجادلة اليهود والنصارى وغيرهما من الديانات (٣). كما أنه رائد في مجال علم نفس الحيوان وهو علم من العلوم الحديثة.

كما أن الجاحظ هو الواضع الأول لعلم "البلدان" وتأثيرها فيمن يعيش فيها من البشر (٤). وإن

(١) المصدر السابق ص ٦٧ .

(٢) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة ج ١ ص ٦٦ .

(٣) له رسالة في الرد على النصارى، وقد حققها صديقنا الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي .

(٤) طه الحاجري: الجاحظ - حياته وآثاره ص ٣٩٢ .

كان غيره قد سبقه في الحديث عن هذا الميدان إلا أنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه الجاحظ وبذلك يعد الواضع الحقيقي لهذا العلم.

ونستطيع القول بأن الجاحظ يعد أول واضع لكتاب عربي جامع في علم الحيوان، وإن كانت قد سبقته محاولات لطائفة من علماء اللغة والرواة مثل أبي حاتم السجستاني في الإبل والوحوش والطيور والنحل والحشرات، والنضر بن شميل وأبي عبيدة وغيرهم يتحدثون فيها عن الحيوان. غير أن هذه الكتب لم تؤلف للقصد العلمي الخالص، ولم تكن على نمط كتاب الجاحظ، وإنما أريد بها أن تكون باحثة في اللغة أولاً، فهي بمثابة معجمات لغوية، خاصة بما ألفت له، فهي لا تبحث في طبائع الحيوان وعاداته وخصائصه وغرائزه، ولا تعنى بأحواله وعاداته، وإنما تجعلهما اللغة، وقد يكون منها ما يبحث في الحيوان بحثاً علمياً، ولكن ذلك كان على سبيل الاستطراد ومشايعة القول (١).

ولقد كان أثر الجاحظ واضحاً وملموساً في أكثر الكتب والمؤلفات العربية التي توالفت بعده وبعد كتابه الحيوان. وكذلك كان أثره كبيراً في كثير من

(١) عبد السلام هارون: مقدمة تحقيق كتاب الحيوان ج ١ ص ١٤ .

مؤلفات الغرب التي تبحث في مجال علم الحيوان لأن هذا العالم المسلم الكبير كان جريئاً فيما ذهب إليه من استنتاجاته والأخذ بها. فقد برهن الجاحظ عن دقة ملاحظة وقدرة هائلة على التصوير العلمي وإظهار المفارقات والخصائص التي تميز حيوانا من آخر، لأنه كان يعنى عناية فائقة في تقصى التفاصيل والجزئيات وربطها بقرائنها. وهو كعالم حيوان كان يحاول أن يصنف، وكان تصنيفه بدائياً في بعض الأحيان، وإن كان لم يفارق ما سبقه من تصنيف. فالتصنيف الحق والعلمي وليد القرن الثامن عشر، أي بعده بنحو تسعة قرون (١).

وكان الجاحظ يحاول أن يضع القاعدة؛ فمثلاً يحدثنا عن الأرجل، ويذهب إلى أنها تكون أزواجاً، فإذا ما سمع بحيوان له مائة رجل لم ينكره، ولكن إذا نقصت واحدة منها أنكره .

والجاحظ أول عالم من علماء الحيوان التجريبيين، فقد كان يتذوق طعم الحيوان حتى السام منها كالعقرب مثلاً، ويجرى التجارب المختلفة

(١) د. أحمد حماد الحسيني: مقال "كتاب الحيوان للجاحظ" مجلة تراث الإنسانية، القاهرة ١٩٦٤ ج ٢ ص ٢٢٣ .

ليتعرف على سلوك الحيوان وغرائزه وخصائصه وتكونه وغير ذلك.

كما أن الجاحظ أول عالم درس سلوك الحيوانات وطرق التعاون والتكافل بينها؛ فمن ذلك أنه يصف لنا التمساح وصفا بديعا وعلاقته بأحد الطيور فيقول: "بأنه - أي التمساح - مختلف الأسنان فينشب فيه اللحم فيعمه، فينتن عليه، وقد جعل في طبعه أن يخرج عن ذلك إلى الشط ويشحى (يفتح) فاه لطائر يعرفه بعينه يقال إنه طائر صغير أرقط، فيجىء من بين الطير حتى يسقط بين لحييه ثم ينقر بمنقاره حتى يستخرج جميع ذلك اللحم فيكون غذاء له ومعاشا، ويكون تخفيفا عن التمساح وترفيها؛ فالطائر الصغير يأتي من هنالك يلتمس ذلك الطعام، والتمساح يتعرض له لمعرفة بذلك منه". وهذه مشاهدة صادقة معروفة عن تمساح النيل، والطائر اسمه "الزقزاق المصري"، وقد أخذ يقل من مصر بعد اختفاء التمساح منها(١).

ويضاف إلى هذه المكانة العلمية والفكرية للجاحظ أنه كان يؤمن بالتطور تبعا لتغير الأحوال

(١) المصدر السابق، ص ٢٢٠.

والأزمان، فهو يقول: "ولكل زمان ضرب من المصلحة، ونوع من المحنة، وشكل من العبادة" (١). ومكانة الجاحظ العلمية والفكرية تلك، كان يحس هو بها اعتدادا واعتزازا، حيث يقول: "حالي أن الوزير يتكلم برأبي، وينفذ أمري، ويواتر الخليفة الصلات إلي" (٢). وكيف لا، وهو صاحب هذه المكانة الرفيعة والمرتبة العالية في مجال العلم والفكر؟ وكيف لا، والجاحظ من المؤسسين الرواد للمنهج العلمي التجريبي في الإسلام؟ وبذلك عدّ فيلسوفا طبيعيا.

ب - قواعد المنهج العلمي عند الجاحظ:

يعتمد منهج الجاحظ في بحوثه ودراساته على عدة قواعد، من أهمها استخدام الاستقراء القائم على الملاحظة والتجربة، والروح النقدية العالية، والشك المنهجي في كل ما يعرض له من دراسة وبحث، والنزاهة والموضوعية والإنصاف. وهذه كلها من

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١ ص ٧ .

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج ١٢ ص ٢١٩ .

الأمور المعروفة في المنهج العلمي وخصائص التفكير العلمي الحديث.

وفيما يتعلق بالقاعدة الأولى نستطيع القول بأن الجاحظ كان من أشهر العلماء المسلمين في مجال استخدام التجارب والبحوث والمشاهدة في أثناء وضع مؤلفاته وبخاصة في كتابه "الحيوان"، وقل ما كان يؤمن أو يصدق بكل ما يسمع، لذلك كان الجاحظ يهرع دائما للتثبت مما يسمع عنه، كلما سنحت له الفرص، حيث يلاحظ ويختبر في وقت كان التحقيق العلمي لا يزال في طفولته المبكرة، والخرافات والأساطير منتشرة بين الناس بصورة شائعة.

يقول الدكتور حسين فرج زين الدين في هذا الصدد: "الجاحظ في الحيوانات ملاحظات ومشاهدات تميزه عن غيره من فلاسفة وكتاب تلك العصور ممن كتبوا في الحيوان، وتقربه إلى ناحية العلم أكثر منهم، بل إن له بالفعل بعض تجارب علمية أجراها بنفسه، وهي وإن كانت لا ترقى إلى مرتبة التجارب العملية إلا أنها ولا شك بداية طيبة ومبادرة منه على طريق العلم التجريبي" (١).

(١) د. حسين فرج زين الدين، د. رمسيس لطفى: دراسات في علم الحيوان ورواد التاريخ الطبيعي، القاهرة، بدون تاريخ ص ٤٢٢ .

وكان الجاحظ - في منهجه التجريبي - يتدرج في أساليبه في البحث والتقصي، تدرجا عموديا، حتى يبلغ الذروة التي يشاؤها له العلم. فهو يتدرج من الفرض العقلي، فالاستنتاج المبني على المنطق والجدل، فالرؤية، فالاختبار والتجربة. والحقيقة أن الجاحظ قد يكون قد سبق كثيرا من علماء العصر الحديث في مجال إجراء التجارب والاختبارات فيما يخص الحيوانات، فقد جرب على أصناف شتى من الحيوان كالضب والحيات والظليم (النعام) والخنفساء والسمك والعقارب والجرذ والنمل وجرب على النبات أيضا. وكان في كل تجربة من تجاربه الكثيرة يذهب مذهبا خاصا، فكان في بعضها يقطع طائفة من الأعضاء، وفي بعضها الآخر كان يلقي على الحيوانات ضربا من السم، وحينما كان يروم في تجربته إلى معرفة بيض الحيوان واستقصاء صفاته، وحينما كان يعزم على ذبح الحيوان وتفتيش جوفه وقانصته، ومرة كان يدفن الحيوان في بعض النبات ليعرف حركاته، وكان في أوقات يبيع بطن الحيوان ليعرف مقدار ولده، وفي أوقات يجمع أضداد الحيوان في إناء من قوارير ليعرف تقاتلها؛ وكان

يستخدم بعض المواد الكيماوية ليتعرف على مدى تأثيرها في الحيوان. ومما يؤيد هذا أن الجاحظ — مثلاً — رأى أن الناس تزعم أن الأفاعي تكره ريح السذاب والشيح فجرب ذلك بنفسه وقال: "أما أنا فإني قد ألقيت على رأسها وأنفها من السذاب ما غمرها فلم أجد على ما قالوا دليلاً" (١).

ويصف إناء من زجاج وضع فيه عشرين عقرباً وعشرين فأراً ليرى ما فعلت العقارب بالفئران وبالعكس (٢).

ويقول بعض الباحثين المعاصرين عن تجارب الجاحظ: "قد نجد فيها صفة من صفات المجرب الحاذق، وأريد بهذه الصفة التطلع العلمي، فإن هذا التطلع قد يحمل العالم على الاهتمام بأمور لا يكون لها في نظر العامة معنى من المعاني، وقد نجد فيها شيئاً من الصفات التي تستلزمها التجربة والتنزه من كل غرض وإنما ينقصها لوازم التجربة في عصرنا هذا؛ فمن هذه اللوازم تنويع التجربة وبسط آفاقها، ونقلها من شكل إلى شكل، وقلبها، وما شاكل ذلك.

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ٣٦٥ .

(٢) د. محمد الصادق غنفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين، القاهرة ١٩٧٧، ص ٢٤٢ .

فلئن كان الجاحظ يجرب فما رأيناه في بعض تجاربه يذهب مذاهب مختلفة وصولاً إلى الحقائق، فما كان ينوع هذه التجارب أو يبسطها أو يخرج بها من صورة إلى صورة أو يقلبها من وجه إلى وجه، ولقد كان ينقصه شيء أعظم من هذا كله فيما أعتقد، فما كان يذهب من التجريب على أمور خاصة إلى استنباط القوانين العامة، وما كان يقابل بين أصناف الحيوان ويصنف ضروب هذا، والمقابلة والتصنيف ركنان من أركان التحقيق في علم الحيوان، وما رأيناه من بعض مقابلاته قد يكون كثيراً. على أن الجاحظ قد ظهر منذ أحد عشر قرناً وليس من العدل أن نكلفه أموراً لم تهتد إليها الفلسفة والعلم إلا من زمن غير بعيد^(١).

وكان الجاحظ يعتمد - في اختباره وتجاربه - على نفسه أحياناً، وأحياناً أخرى على بعض أصدقائه من العلماء في إجراء مثل هذه التجارب والاختبارات العلمية على بعض الحيوانات ليستخلص منها بعض النتائج التي كان يتوخاها الجاحظ نفسه، كما نرى في الاتجاه العلمي الذي سار عليه في كتاب

(١) شفيق جبري: الجاحظ، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق ج

١١ ص ٥٥٧ - ٥٦٤.

الحيوان.

أما فيما يتصل بالروح النقدية التي كان يتمتع بها الجاحظ فإننا نستطيع القول بأن هذه الروح إنما تصدر عن نزعة عقلية واضحة، تميزت بها المعتزلة بصفة عامة والجاحظ بصفة خاصة. فالعقل عند الجاحظ يحتل مكانة بارزة، فهو الحاكم على الحس "ولعمري إن العيون لتخطئ، وإن الحواس لتكذب، وما الحكم القاطع إلا للذهن، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل إذ كان زماما على الأعضاء، وعيارا على الحواس" (١).

ومن هنا نجد الجاحظ يرد بشدة على أي خبر لا يتفق والمنطق العلمي الذي كرس حياته من أجله، ولا يقبل أي فكرة إلا بعد تمحيص مهما يكن مصدرها.

ومن ثم تعرض للخرافات بالنقد ولم يقبلها وأنكر على أصحابها؛ من هذه الخرافات ما حدث بين المغيرة بن القزr ومردويه كرداني عندما تضاربا فيما بينهما. يقول الجاحظ: "أما ما ترويه

(١) الجاحظ: رسالة التريب والتدوير، ص ١٩ .

رواة السوء من شأن المغيرة بن الفزر ومردويه كرداني بالأهواز، فهو من المحال الذي لا يخیل على ذی عقل. قالوا: التقيا فاختلفا ضربتین، فضرب المغيرة وسطه فمن حدته وجودته ومن شدة ضربته وقوته مر السیف فی وسطه حتى نفذ من الجانب الآخر، والمضروب لم يشعر به، ثم قال المضروب للمغيرة: ما صنعت شیئا، قال المغيرة: فإن كنت صادقا فتحرك، فلما تحرك تباین نصفاه فسقط أحدهما عن یمین الفرس والآخر عن یساره. فهذا من أحادیث الخرافات، وليس یحتمل هذا الضرب من الأحادیث إلا من لا علم له" (١).

وهو ینقد المفسرین الذین نصبوا أنفسهم للعامة ليقولوا بغير رواية وعلى غیر أساس، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم" فكيف أثق بتفسيرهم، وأسكن إلى صوابهم، وقد قالوا فی قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾: إن الله عز وجل لم یعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلی فیها، بل إنما عنی الجباه وكل ما سجد الناس علیه، من يد

(١) الجاحظ: البرصان والعرجان والحولان، ص ٢٤٤.

ورجل وجهه وأنف" (١).

ومن انتقاداته الاجتماعية انتقاده لمن يستحقون رعاة الغنم حيث يقول لهم: "أما استحقاق رعاة الغنم في الجملة، فكيف يكون ذلك صوابا وقد رعى الغنم عدة من جلة الأنبياء صلى الله عليهم" (٢).

ومن ذلك — أيضا — انتقاده انعزال مرة الهمداني وصلاته في اليوم واللييلة خمسمائة ركعة حتى لا يخوض في غمار ما يحدث في مجتمعه من فتن ومشكلات. يقول الجاحظ: "وأنا أسأل الله أن يغفر لمرة. على أنا لا نعرف لبعض ما قال وجهها؛ لأنك لا تعرف فقيها من أهل الجماعة لا يستحل قتال الخوارج، كما أنا لا نعرف أحدا منهم لا يستحل قتال اللصوص. وهذا ابن عمر، وهو رئيس الحلسية، بزعمهم، قد لبس السلاح لقتال نجدة" (٣). ونجدة هذا هو نجدة بن عامر أحد الخوارج وإليه تنسب فرقة النجدات .

ومن انتقاداته الطبية ذلك الانتقاد الذي وجهه

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ١ ص ٣٤٣ .

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ١ ص ٢٤٥ .

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ١٣٠ .

إلى جعفر بن يحيى عند ما رأى أن مرض "البرص" يكون نتيجة للعقوق، وهو متابع في ذلك لأطباء الهند. يقول الجاحظ: "قالوا: وهذا شيء أخذ جعفر بن يحيى عن أطباء الهند. وأطباء الهند تزعم أن العقوق يورث، البرص وهذه القصة مجانبة لسبيل الطب" (١).

أما نقد الجاحظ للذين يزعمون أخباراً عن بعض الحيوانات، والتي لا تمت بصلة للعلم، من قريب أو بعيد، فإنه لا ينتهي؛ فمن ذلك قوله: "والذين زعموا أن البغل إنما طال عمره لقلّة السفاد، والعصفور قصر عمره لكثرة السفاد وغلتمته - لو قالوا ذلك على جهة الظن والتقريب لم يلمهم أحد من العلماء. والأمور المقربة غير الأمور الموجبة" (٢).

ومع أن الجاحظ يقر لليونان بأن لهم فلسفة وصناعة منطق، وأن "أرسطو" عالم بتميز الكلام وتفصيله ومعانيه وخصائصه، إلا أنه يرى أن أرسطو كان "بكي اللسان، غير موصوف بالبيان" (٣).

(١) الجاحظ: البرصان والعرجان، ص ٣٦ .

(٢) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ٢٢٣ .

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٣ ص ٢٧ .

وقد وجه الجاحظ كثيرا من الانتقادات لأراء أرسطو في الحيوان معبرا عن أرسطو بـ "صاحب المنطق"؛ وهو يناقش أرسطو في أحكامه مناقشة النند للند، ولم يتورع عن اتهامه بالجهل في أكثر من مكان، فمن ذلك رده على بعض ما قال أرسطو حين زعم أن أصنافا من السباع المتزوجات المتلاحبات مع اختلاف الجنس والصورة معروفة النتاج، مثل الذئاب التي تسفد الكلاب. يقول الجاحظ: "وقد سمعنا ما قاله صاحب المنطق من قبل وما يليق بمثله أن يخلد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء" (١). وقد ذكر أرسطو أنه قد أبصر ثورا وثب بعد أن خصي، فنزا على بقرة فأحبها. ويعقب الجاحظ على ذلك بقوله: "ولم يحك هذا عن معاينة، والصدور تضيق بالرد على أصحاب النظر، وتضيق بتصديق هذا الشكل" (٢).

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ١ ص ١٨٥ .

(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ٥٠٢ .

هذا فيما يتعلق بالقاعدة الثانية، أما القاعدة الثالثة فهي الشك المنهجي، والشك المنهجي ضرورة علمية حتى لا يسلم العالم بفكرة من حقها أن ترفض، أو أن يرفض فكرة من حقها أن تقبل. ومن هنا كان الشك عند الجاحظ سبيلا إلى اليقين، فهو لا يشك في الأمور لمجرد الشك وإنما يشك ليصل إلى يقين قاهر. وفي كثير من الأحوال وجد الجاحظ نفسه يتقبل بعض الأحكام من غير استنتاج ومن غير جدل، يتقبلها كأمر بديهية حتمية كوجود الخالق وقدرته، فموقفه منها موقف المسلم المؤمن. أما في غير هذه الموضوعات، فإن الجاحظ يلزم جانب الحذر، وكان يتأكد من صدق حامل الخبر قبل الخبر. وعندما لا يصدق خبرا أو يشك فيه فإنه يثبت ذلك مع استخدام ألفاظ مثل: زعم، وبزعم، وبزعمون، وقيل، وما أشبه ذلك. ولا يكتفى الجاحظ بإيراد الزعم، ولا سيما إن كان صادرا عن المشهورين من العلماء، بل يعمل على مناقشته وتقنيده، ويخرج منه باستدلالات يدحض بها كثيرا من الخرافات والأساطير، فهو نفسه يدعو - كما ذكرنا من قبل - إلى اعتماد العقل دون الحواس، لأن

الحواس خادعة. وقد أدرك الجاحظ أن الأساطير إذا ما زجت العلم أفسدته وذهبت قيمته البحتة، لذا يقول: "وقالوا في الخلق المركب ضروبا من الحق والباطل، ومن الصدق والكذب، فمن الباطل زعمهم أن الشبوط ولد الزجر من البنى، وأن الشبوط لا يخلق من الشبوط، وأنه كالبعوض في تركيبه وأنساله(١).

وإذا كان الجاحظ يشك شكاً منهجياً ليصل إلى اليقين فإنه في الوقت نفسه يرفض الشك الذي لا يوصل إلى يقين وإنما هو شك لمجرد الشك، بل يرى الجاحظ أن هذا النوع من الشك متعب للإنسان ومحير له "وقد تعرف ما في الشك من الحيرة، وما في الحيرة من القلق، وما في القلق من النصب، وما في النصب من طول الفكرة، وما في طول الفكرة من الوحشة، وما في طول الوحشة من التعرض للوساوس والخفقة.. وما في نزاع النفس من الكد"(٢). أما القاعدة الرابعة فهي النزاهة والموضوعية والإنصاف؛ ونلمس هذا من الجاحظ في أول

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ١٤٩.

(٢) الجاحظ: التربيع والتدوير، ص ٣٩.

كتابه الحيوان وفي كل أبواب الكتاب والكتب
الأخرى وفي مختلف القضايا التي يعرض لها، ومما
يدل على هذا قوله: "جنبك الله الشبهة، وعصمك من
الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا، وبين الصدق
سببا، وحبب إليك التثبت، وزين في عينك الانصاف،
وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عز الحق،
وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذل اليأس،
وعرفك ما في الباطل من الذلة وما في الجهل من
القلة" (١).

من أجل هذا نجد الجاحظ يعتذر - أحيانا -
عن أرسطو، بأن المترجمين لكتابه لم يحسنوا النقل،
ولم يتوخوا الدقة والمطابقة. فهو يقول: "ولعل
المترجم قد أساء في الإخبار عنه" (٢). ويقول في
موضع آخر: "فكيف أسكن بعد هذا إلى أخبار
البحريين وأحاديث السماكين، وإلى ما في كتاب رجل
- يعني أرسطو - لعله إن وجد هذا المترجم أن يقيمه
على المصطبة، ويبرأ إلى الناس من كذبه عليه،

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ٣ .

(٢) المصدر السابق، ج ٢ ص ٥٢ .

ومن إفساد معانيه، بسوء ترجمته" (١).
وكان الجاحظ يتمتع بأمانة علمية بحيث إذا نسي
شيئاً أثبت ذلك إحقاقاً للحق وعملاً بالموضوعية
والنزاهة، فقد نسي إسناد خطبة من الخطب فسجل
هذا بقوله: "وخطبة أخرى ذهب عني إسنادها" (٢).
تلك هي أهم قواعد المنهج العلمي عند الجاحظ
استنبطتها من كتبه الرئيسية التي بين أيدينا.

(١) المصدر السابق، ج ٦ ص ١٩ .

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢ ص ١٢١ .

الفصل الثاني

جوانب الفلسفة الطبيعية عند الجاحظ

إذا كنا سنتحدث عن الفلسفة الطبيعية عند الجاحظ في هذا الفصل، فإن معنى هذا أن الجاحظ فيلسوف، فهل هو كذلك؟ الواقع أننا إذا عدنا الفلسفة نظاماً فكرياً متماسكاً، محكم البناء والتصميم، فإننا لا نستطيع أن نعد الجاحظ فيلسوفاً، لأنه لم ينسق أفكاره تنسيقاً دقيقاً شاملاً، على غرار ما نجده عند من يسمون بالفلاسفة من أمثال أرسطو أو ديكارت، بحيث يكون مذهباً منسقاً متسقاً خاصاً به.

وأيضاً لا نستطيع أن نعدّه فيلسوفاً إذا فهمنا الفلسفة على أنها مجموعة الدراسات التي ترجع جميع المعارف البشرية إلى عدد محدد من المبادئ الأساسية وتسعى إلى تكوين نظرة شاملة عن العالم. فإننا لا نجد عند الجاحظ نظرة عامة شاملة أصيلة للعالم وتطور المجتمعات البشرية وليس عنده شيء مما ندعوه فلسفة العلوم أو فلسفة التاريخ أو فلسفة القانون على النحو الذي نراه عند ابن خلدون وكونت وهيجل وغيرهم.

غير أن الفلسفة اتخذت عند اليونان معنى المعرفة العقلية أو العلم بأوسع معانيه. حيث قسم أرسطو الفلسفة إلى قسمين: الفلسفة الأولى أو

الإلهيات، والفلسفة الثانية أو الطبيعية. وبهذا المعنى يمكن اعتبار ما كتبه الجاحظ أبحاثاً فلسفية، لأنه عالج موضوعات ميتافيزيقية وطبيعية متعددة: تكلم عن الله، خالق الكون ومنظمه من حيث وجوده وصفاته وإدراكه وعلاقته بالإنسان كما تحدث عن بعث الرسل ودورهم في إرشاد البشر ودلائل صدقهم، واهتم بالطبيعة فدرس ما فيها من كائنات مختلفة، جماد وحيوان وإنسان، فوجد فيها طبائع تسيرها ينبغي الاعتماد عليها لفهمها، كما وجد فيها من دقة الصنعة ما يدل على حكمة الله تعالى ووجوده. وبذلك يكون قد ربط ربطاً محكماً بين قسمي الفلسفة المذكورين آنفاً.

كما أن الجاحظ قد عالج موضوع المعرفة معالجة جادة، إذ تطرق إلى طبيعتها ووسائلها ومعنى اليقين والشك والظن وحدود العلم البشري. وفي مجال الأخلاق جال جولات طيبة، فحاول أن يدرك الأسس التي تقوم عليها الأخلاق، بملاحظة دقيقة لسلوك الناس، وتحليل عميق لنفسياتهم؛ وفي مجال علم الجمال ترك أبحاثاً واسعة تناولت مفهوم الجمال ومظاهره في المرأة والشعر والخطابة واللغة. وبهذا

- أيضا - ينطبق على الجاحظ المعنى الذي اتخذته الفلسفة في العصور الحديثة..

بيد أنه يمكن القول بأن اهتمام الجاحظ بموضوعات الفلسفة أو الكتابة فيها لا يكفيان لعهده فيلسوفاً، إذ لا بد من توافر شرطين هما: أن تكون تلك الكتابات ذات قيمة، وأن تكون ذات طابع عقلاني وآيلة إلى الآراء التي تبحثها الفلسفة والفلاسفة بشكل عام.

والحق أن الجاحظ تتطوى آثاره على قيمة فكرية ترجع إلى الشمول والأصالة. فلقد فكر في جميع المسائل التي تصادف الإنسان، وأصدر حولها العديد من الآراء المنهجية السديدة. فنظريته المعرفية مميزة انفرد بها عن سائر المتكلمين والفلاسفة، وقد أسهم في أبحاثه الجمالية بوضع أسس علم البيان في العربية، وقدم ملاحظات طريفة فيما يتصل بعلم نفس الحيوان وتأثير البيئة والتطور، وصاغ نظريته في الإمامة.

والطابع العقلي واضح القسّمات في كتابات الجاحظ؛ فلقد كان معتزلياً يحكم العقل فيما يبحث، ويخضع الأشياء والأمور للنقد، ويجعل الشك طريقاً

إلى اليقين، ولا يروى غليله إلى الحقيقة سوى العيان والخبر الصادق الذى يثق العقل به. ويرفض الكثير مما لا يقبله عقله من أساطير وخرافات تتعلق بالإنسان أو الحيوان أو الظواهر الطبيعية.

وتأسيسا على ما تقدم يكون للجاحظ فلسفة، أى أن له اتجاهات فكرية تتطلق من ميدان الفلسفة لا من ميدان الأدب. ذلك أن الجاحظ لم يكن أدبيا فقط، كما عرف عنه، وإنما كان مفكرا أيضا، حيث أطل على ميادين الفلسفة المختلفة من طبيعيات وغيرها.

غير أن الباحثين قد أهملوا الناحية الفلسفية عند الجاحظ واهتموا بالجانب الأدبي فقط اعتقادا منهم أنه أديب في الدرجة الأولى، حتى لنرى أحدهم يقول: "إن الجاحظ كان أولا وقبل كل شيء من الألباء.. وأن تواليفه، حتى ما كان منها خاصا بالكلام، هي أدنى إلى الأدب منها إلى العلم(١). ثم يضيف في تأكيد هذا الرأي: "وصفوة القول أن الجاحظ كان قوي الملاحظة أكثر منه مفكرا، وأديبا

(١) دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، ١٩٣٣، مجلد ٦ ص

أكثر منه فيلسوفاً، وعرف الجاحظ بالفطنة وسداد ملاحظاته في أغلب الأحيان، ومع ذلك فلا يمكن أن تسلك مؤلفاته إلا في كتب الأدبيات، أي كتب التهذيب وأدب التسلية والعلوم^(١).

وتابع هذا الواحد كثير من الباحثين المحدثين في دراساتهم، حيث انضبت هذه الدراسات على الناحية الأدبية وأهملت الناحية الفلسفية. وهذا عكس ما تنبّه إليه القدامى، حيث فطنوا إلى الناحية الفلسفية عند الجاحظ.

لكن إذا كان الجاحظ فيلسوفاً، فهل يمكن وصفه بالفيلسوف الطبيعي؟ الواقع أن الجاحظ قد اهتم بدراسة الطبيعة في مختلف ظواهرها من جماد ونبات وحيوان وإنسان. يظهر ذلك بوضوح في مؤلفاته المتعددة والمتنوعة، ككتاب الحيوان حيث يتحدث عن الجماد والحيوان، وكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعشاب حيث عرض لبعض النباتات، وكتاب العرب والموالي، وكتاب مفاخرة الجوارى والغلمان، وفصل ما بين العداوة والحسد،

(١) المصدر السابق .

وغيرها حيث توسع في دراسة الإنسان .
غير أن دراسة الطبيعة وحدها لا تكفى لإضفاء
صفة الفيلسوف الطبيعي على المفكر، إذ لا بد من
وجود نزعة فكرية عنده تقوم على تفسير الظواهر
المختلفة بالاستناد إلى الطبيعة. وهذا ما نجده واضحا
في تفكير الجاحظ؛ فهو ينظر إلى الأشياء نظرة
واقعية علمية، مؤمنا بوجود قوانين تسير بموجبها
وتفسرها.

والجاحظ لم يعن بما يجرى في الطبيعة فحسب،
وإنما عنى - أيضا - بالبحث عن علة أولى واحدة
للكون بأسره. وهو بهذا يختلف عن فريق من
الفلاسفة الطبيعيين أطلق عليهم اسم الدهريين، لم
يقروا بوجود الخالق، ولذا تحدث عنهم الجاحظ
وهاجمهم بعنف شديد(١).

كما خالف الجاحظ فيلسوفا طبيعيا كبيرا هو
أبو بكر الرازي (٢٥١ - ٣١١هـ) الذى نفر من
علم الكلام، واهتم بالطب، ووثق به، وقال بوجود
مبادئ أربعة عدا الله ضرورية لوجود العالم هي

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٧ ص ١٢ .

النفس الكلية والهيولي الأولى والمكان والزمان المطلق. أما الجاحظ فعلى النقيض، أحب علم الكلام، ورفض أي مبدأ قديم يساق الله في قدمه (١).

وإذا أردنا أن نحدد مفهوم الطبيعة عند الجاحظ فإننا نجد أنه يستفاد من التعابير التي وردت فيها هذه الكلمة أن الطبيعة هي حالة الشيء الفطرية التي تشكل حقيقته أو خاصته المميزة كالتسخين بالنسبة للنار والتبريد بالنسبة للثلج، والإدراك بالنسبة للإنسان، ويشبه الجاحظ الطبيعة بالعادة التي يكتسبها المرء بالمران والتكرار. ومن هنا تغدو الطبيعة والعادة توأمين في نتائجهما أو أثرهما في حياة الإنسان (٢).

واستعمل الجاحظ الطبيعة بمعنى الاستعداد الفطري في الإنسان، أو ميله إلى عمل من الأعمال أو فن من الفنون، وهكذا قد يكون الرجل له طبيعة في التجارة وطبيعة في الكلام، وليس له طبيعة في

(١) أبو بكر الرازي: رسائل فلسفية، دار الأفاق، بيروت ١٩٧٧ ص ١٩٥.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٤ ص ٩٩ .

الفلاحة (١). كما وردت كلمة طبيعة مرادفة للطبع وهو السجية التي تولد مع صاحبها ولا تكتسب اكتساباً (٢).

ولعل اهتمام الجاحظ بالطبيعة ووصفه لأفاعيلها هو الذي جعل واحداً مثل "دى بور" يعبه فيلسوفاً طبيعياً، حيث يقول: "كان الجاحظ فيلسوفاً طبيعياً وأديباً ظريفاً، وعنده أن العالم الحق يجب أن يضم إلى دراسة علم الكلام دراسة العلم الطبيعي وهو يصف في كل شيء أفاعيل الطبيعة، ولكنه يشير إلى ما في هذه الأفاعيل من أثر خالق الكون (٣).

والحق أن إشارة الجاحظ إلى ما في أفاعيل الطبيعة من أثر خالق الكون لا يضئير فلسفته الطبيعية، ولا ينتقص من قيمتها، لأنه نظر إلى الطبيعة نظرة موضوعية. فهي وإن كانت في البدء

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ١٠ - ١١ .

(٢) فارن أبأ البركات البغدادي: المعتبر في الحكمة، حيدر آباد الدكن، الطبعة الأولى ١٣٥٨ هـ ج ٢ ص ٤ - ٥ .

(٣) دى بور: تاريخ الفلسفة في الاسلام، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، القاهرة، ١٩٥٤ ص ٨٨ .

من صنع الله، إلا أنها في الوقت نفسه تسير بموجب قوانين محددة تسمح بدراستها دراسة علمية مستقلة؛ فالله سبحانه وتعالى هو واضع القوانين ومنها قانون السببية: "إن الفروع لا محالة راجعة إلى أصولها، والأعجاز لاحقة لصدورها، والموالي تبع لأوليائها، وأمور العالم ممزوجة بالمشاكلة، ومنفردة بالمضادة، وبعضها علة لبعض، كالغيث علة السحاب، والسحاب علة الماء والرطوبة، وكالحب علة الزرع والزرع علة الحب، والدجاجة علة البيضة والبيضة علتها الدجاجة، والانسان علة الانسان" (١).

كما أنه لا يقلل من أهمية فلسفة الجاحظ الطبيعية قول أحد المستشرقين: "إن الجاحظ كان عالما بالطبيعة والانسان، ولكنه لم يقصد في كتبه وضع قواعد هذين العلمين، إنما كان همه إثارة اهتمام القارئ بهما، وذلك بتحبيبهما إليه" (٢).

صحيح أن الجاحظ لم يضع كتابا يتناول أصول العلم الطبيعي وقواعده، ولكنه طبقها إلى حد ما في

(١) الجاحظ: كتاب القيان، ضمن رسائل الجاحظ ج ٢ ص ١٤٦.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، ج ٦ ص ٢٣٦.

مؤلفاته وأوضح معالمها. ثم إنه لم يكن همه إثارة اهتمام القارئ بهذا العلم فحسب، بل كان يريد — شأنه في ذلك شأن كل عالم ومفكر — أن يقدم لبنى جلده آراءه ونتيجة أبحاثه ودراساته .

والواقع أن الجاحظ لم يكن أول من اهتم بالطبيعة، وإنما وجدت بذور هذه الفلسفة لدى اليونان، وعرض لها كثيرون من معاصري الجاحظ من أمثال أبى الهذيل العلاف، والنظام، وثمامة بن أشرس، وبشر بن المعتمر، غير أن الجاحظ قد بلغ بها نهاية أبعد. ففي حين قال هؤلاء المتكلمون الاعتزاليون بالطبع ليبينوا أن أفعال الانسان من صنعه وليست من صنع الله، نجد الجاحظ يتخذ من الطبيعة غاية وليست وسيلة، فيجعلها موضوعا للدرس والتأمل في محاولة منه لسبر أغوارها واكتشاف قوانينها .

لقد قسم الجاحظ العالم قسمين كبيرين هما: الجماد والنامى (١)، وقسم النامى إلى نبات وحيوان، وأدخل الانسان في قسم الحيوان (٢). أما الجماد أو غير النامى كما يفضل تسميته فهو يرادف الموات غالبا .

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ٢٦ .

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٧ .

وهو لا يوافق الفلاسفة في قولهم بالأفلاك. إنهم لا يسمونها جمادا أو مواتا، لاتصافها بالحركة التلقائية وتدبير الحياة على الأرض. وهو يشير بذلك إلى فلاسفة اليونان كأرسطو وأفلاطون ومن اقتفى أثرهم من فلاسفة الاسلام كالكندي معاصر الجاحظ الذين ذهبوا إلى أن الأفلاك تتمتع بالحياة والحركة وتؤثر في شئون الكائنات على سطح الأرض.

يرفض الجاحظ الأخذ بهذا الرأي ويقول إن الأفلاك والنجوم أجسام غير نامية، ويؤيد رأيه بحجج عديدة، منها أن حركة الأفلاك التلقائية لا تكفى لإخراجها من قسم الجمادات؛ ومنها أن جميع الناس لا يوافقون الحكماء على مذهبهم، بل إن معظم الأمم تخالفهم وتكرر عليهم اعتقادهم؛ ومنها أن هؤلاء الحكماء مقصرون في دراسة الجمادات .

ومن هنا نجد الجاحظ قد نجا من الوقوع في الخطأ الذي ارتكبه المفكرون اليونان والإسلاميون وهو الاعتقاد بأن الأفلاك السماوية تتدرج في سلسلة متواصلة ويتمتع كل منها بعقل ونفس، ويؤثر كل منها في الآخر، وهي بالتالى تؤثر في الأرض وما عليها من كائنات بحيث تستمد هذه الكائنات الأرضية

- أسباب وجودها من تلك الأفلاك(١).
- وخلاصة القول أن الفلسفة الطبيعية تركز عند الجاحظ على المبادئ التالية:
- ١ - العناية بدراسة ما في الطبيعة من ظواهر كثيرة شملت تقريبا جميع الكائنات من جمادات وأحياء .
 - ٢ - اتخاذ آثار الأشياء أساسا للبحث، للاعتقاد بأن معرفة ماهيات الأشياء لا تتسنى إلا بمعرفة ما يصدر عنها من آثار.
 - ٣ - أن الجاحظ اندفع إلى أبحاثه الطبيعية مسوقا بنزعه العلمية وإيمانه الديني العميق.
 - ٤ - أن الفلسفة الطبيعية عند الجاحظ ذات طابع خاص يميزها عن المذاهب الطبيعية التي عرفها تاريخ الفلسفة. إذ إن نظرة الجاحظ إلى الطبيعة تختلف عن نظرات فيثاغورس وديموقريطس وأرسطو قديما، كما تختلف عن نظرات دارون وسبنسر حديثا.
 - ٥ - لا ينطبق على الجاحظ المعنى الحديث للفلسفة الطبيعية القائل بأنه لا يوجد شيء خارج

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٦ .

الطبيعة، أى الذى ينفى وجود القوى الميتافيزيقية.
فالجاحظ يقول بوجود خالق للطبيعة ما زال
يرعاها وتمثل فيها حكمته وهو الله تعالى. ولم
يتصور الكائنات الطبيعية أعدادا كفيثاغورس، ولا
مجموعة ذرات تتحرك دون غاية أو خالق
كديموقريطس، ولم يقل إن الله لا يعلم بما يجرى فى
الطبيعة كأرسطو، ولم يفهم التطور على أساس
الانتخاب الطبيعي مثل دارون وسبنسر وغيرهما .

الفصل الثالث

الجماد (الموات)

أ - معنى الجماد:

الجماد عند الجاحظ هو كل ما ليس بنام. وهو يعترف بأن هذا التحديد غير كاف لأنه يعتمد على السلب، ويعزو ذلك إلى تقصير الحكماء في وضع أسماء للجمادات، ولهذا فهو ينتهي في تبیین معنى الجماد إلى حيث انتهوا من غير إضافة شيء جديد. "وكان حقيقة القول في الأجسام من هذه القسمة أن يقال: نام وغير نام. ولو كان الحكماء وضعوا لكل ما ليس بنام اسما كما وضعوا للنامی اسما لاتبعنا أثرهم، وإنما ننتهي إلى حيث انتهوا" (١).

ويدل الجماد في الغالب على السموات؛ والسموات هو كل ما يخلو من الحياة كالأرض، أما الماء والنار والهواء فإنها لا تسمى جمادا ولا مواتا ولا حيوانا، وإن كانت خالية من النماء والحس (٢). ولعل السبب في ذلك هو اعتبار الماء والتراب والنار والهواء عناصر تدخل في تركيب الأجسام وليست أجساما تدخل في التقسيم الذي يتحدث عنه الجاحظ.

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ٢٦ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧ .

ويعترف الجاحظ بأنه لم يبتدع فكرة العناصر هذه، فقد سبقه إليها حكماء الدهرية، ويعنى بهم فلاسفة اليونان. يقول الجاحظ: "ومنهم (أى من الدهرية) من زعم أن هذا العالم من أربعة أركان: من أرض وهواء وماء ونار، وجعلوا الحر والبرد والبلية أعراضاً في هذه الجواهر" (١).

ب - الجزء الذى لا يتجزأ:

يتصل بالحديث عن الجماد وتركيب الأجسام عند الجاحظ الإشارة إلى نظرية الجوهر الفرد أو الجزء الذى لا يتجزأ أو الذرة؛ تلك النظرية التى تنسب إلى ديموقريطس الفيلسوف اليوناني. وهذه النظرية تذهب إلى أن الأجسام تتركب من أجزاء متناهية في الصغر لا يمكن أن تتجزأ. ويقول "بيروزل" إن المسلمين قد تلقوا هذه النظرية عن الغنوصية، عندما ترجمت المؤلفات اليونانية إلى اللغة العربية في مطلع العصر العباسي (٢).

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ٤٠، ج ١ ص ٢٧ .

(٢) س. بينيس وبيروزل: مذهب الذرة عند المسلمين، ترجمة محمد

عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة ١٩٤٦ ص ١٤٠.

وأول قائل بمذهب الذرة — من المسلمين —
هو أبو الهذيل العلاف من متكلمي المعتزلة (١).
وهذا المذهب جزء من صميم مذهب
الأشاعرة، كما يقول "س. بينيس"، فإن المخلوقات
عند الأشاعرة تنقسم إلى جواهر أفراد، سواء كانت
أجساما أم أعراضا، أم مكانا أم زمانا. وكل حادث
يقع في الزمان، فهو ينقسم إلى أجزاء منفصل
بعضها عن بعض تمام الانفصال، ولا يربط بينها إلا
إرادة الله عز وجل. والأعراض عندهم لا تبقى
زمانين، أما الأجسام فهي تبقى بأن تخلق في كل
وقت (٢).

وبالرغم من أن كلمة "ذرة" مذكورة في
القرآن الكريم إلا أن بعض الباحثين يرجعون
استعمالها إلى تأثر المسلمين باليونانيين والهنود.
على أية حال، يعد القول بأن الأجسام تتألف
من ذرات الفصل الأول من فصول المذهب المادي

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين، استنبول ١٩٣٠ ج ٢ ص ٣١٤.
(٢) بينيس وبيرتزل: مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته بمذاهب
اليونان والهنود ص ٢ .

أو المذهب الآلى، عند بعض الباحثين، وإن كان القول به لا يحتم الإلحاد، بل يحتمل الاعتقاد بوجود خالق للطبيعة.

والحق أن القول بالذرة أو الجوهر الفرد يرجع - كما ذكرنا - إلى الفيلسوف اليونانى "ديموقريطس" الذى اعتبر الماء والتراب والنار والهواء فروعاً للمادة البحتة المجردة من كل تعيين، الشبيهة بتلك التى نتصورها فى العلم الرياضى حين نفكر فى النقطة والخط والجسم، أى أنها امتداد فحسب، وارتأى أن هذا الامتداد مؤلف من أجزاء غاية فى الصغر حتى إنها لا تحصى بالحواس، ولا تقسم إلى أصغر منها، تتحرك فى الفضاء وتتقابل على أنحاء شتى لا تحصى، فتألف فى مجاميع هي الأجسام المنظورة الملموسة، وتفترق بفعل الحركة أيضاً، فتتحل الأجسام ليتكون غيرها، واختلاف الأجسام فى خصائصها يرجع إلى اختلاف الذرات المؤلفة لها،

عددا وشكلاً ومقداراً وترتيباً، فالجسم الطبيعي في هذا التصور مثله كمثل الآلة الصناعية، والمادة ههنا مكتفية بنفسها، مستغنية عن خالق يوجدها ويطبعها بقوانينها، بل عن صانع يصور مادة مستقلة عنه سابقة على تصويره الجزئيات وتنظيمها.

هذا هو أصل مذهب الذرة أو نظرية الجواهر الفرد الذي اصطنعه متكلمو الإسلام، ومن هنا نعتهم بعض الباحثين بأنه مذهب يؤدي إلى الإلحاد (١) بينما نعتهم بعضهم الآخر بأنه مذهب لا يحتم الإلحاد (٢).

غير أنى أرى أنه لا يمكن القول بأن هذا المذهب يحتم الإلحاد إلا إذا قلنا إن هذه الذرات هي التي تحرك نفسها، وتجتمع وتفترق من تلقاء نفسها، بالمصادفة، وأنها مكتفية بنفسها، ومستغنية عن خالق

(١) د. محمود قاسم: مقدمة تحقيق الكشف عن مناهج الأكلة لابن رشد - القاهرة ١٩٦٤، ص ١٢٠.

(٢) يوسف كرم: الطبيعة وما بعد الطبيعة، طبعة ثالثة - القاهرة، ص ١٢.

يوجهها، ويجمع شتاتها، ولا سيما أن العلم الحديث أثبت أن الذرات هي التي تكوّن الأجسام وأنها تتجزأ. والحق أن هناك فروقاً دقيقة بين لب النظرية الذرية القديمة ونظرية علماء الكلام المسلمين، فالأولى منهما ذات طابع مادي على الإطلاق، إذ هي تجعل الأحداث الطبيعية متوقفة على تصادم الذرات وسحبها ودورانها في دوامة مستمرة كالنبع الجياش في وسط البحر مع خضوعها في الوقت نفسه لقانون طبيعي لا يتخلف؛ أما عند المتكلمين فإن الذرات دليل على قدرة الله المطلقة الذي يدبر - في كل حال - هذه الذرات وفق محض إرادته. يضاف إلى هذا أن عدد الذرات لا يتناهي عند فلاسفة الذرة من القدماء ومن تبعهم، كما كانت الذرات أكثر انفصالاً بعضها عن بعض بوساطة الفراغ؛ أما عند متكلمي الإسلام فعدد الذرات متناه يضبطه الله سبحانه ويدبره، كما أنهم يتجنبون حتى الحديث عن الفراغ.

وزيادة على ما تقدم كانت الذرات فى نظر علماء الإغريق أجساما، جزيئات من المادة فى غاية الدقة، غير قابلة للانقسام إلى أصغر منها؛ أما عند متكلمى الإسلام فليست الذرات أجساما ولا أجراما. فالجسم عند العرب يتكون من عدد معلوم من الذرات (١).

يضاف إلى هذا - أيضاً - فرق أساسى بين مذهب الجوهر الفرد عند متكلمى الإسلام، ومذهب "ديموقريطس" هو أن هذا الأخير يرى أن للمادة كما للجواهر الأفراد التى تتألف منها المادة خصائص أساسية معينة تكون ماهيتها، وهى الصفات الأولية، بالاصطلاح الحديث؛ أما عند متكلمى الإسلام فإن الأعراض، باعتبار أنها جنس من الموجودات على حدة، تختلف عن الجواهر المجردة من جميع الصفات حتى الأولية منها، ويمكن أن تقوم

(١) ألدومبيلى: العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى، الترجمة العربية، القاهرة ١٩٦٢، ص ٢٧٧، ٢٧٨.

الأعراض - عند المتكلمين - فى حل كل مشكلة شائكة مقام الصور والكيفيات عند الذين أخذوا بمذهب أرسطو فيما بعد(١).

هذا وقد ارتضى القول بالذرة أو نظرية الجوهر الفرد غالبية المتكلمين من الجبرية والمعتزلة، وجميع الأشاعرة والشهرستاني، ونفاه فلاسفة الإسلام والنظام والجاحظ وابن حزم(٢).

لقد أيدت الجبرية نظرية الجزء الذى لا يتجزأ بدافع كلامى وليس نتيجة لبحث فيزيقى. ذلك لأنهم وجدوا فيها سنداً لمذهبهم القائل أنه لا فاعل فى الطبيعة إلا الله، فإذا كانت الأجسام تتركب من أجزاء صغيرة لا تتجزأ فإنها تحتاج إلى قوة تربط فيما بينها باستمرار، وهى الله عز وجل، والله فى

(١) بينيس: مذهب الذرة عن المسلمين ص ٨ .

(٢) د. يحيى هويدى: محاضرات فى الفلسفة الإسلامية، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٤٠.

رأيهم يخلق الأجسام ويفنيها باستمرار، بينما أيدها
سائر المعتزلة أو غالبيتهم تفسيراً للآية الكريمة
القائلة: ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

أما النظام والجاحظ فقد أنكرا نظرية الجزء
الذى لا يتجزأ، وقالوا إن الأجسام يمكن أن تقسم إلى
ما لا نهاية له من الأجزاء الصغيرة، وليس من جزء
إلا وله أجزاء أصغر منه. ويظهر أنهما انساقا إلى
هذه النظرية بدافع جدلى رياضى، أو لعلهما قد تأثرا
ببعض الفلاسفة اليونانيين كالرواقيين الذين خالفوا
"ديموقريطس"، وقالوا إن المادة تتجزأ بالعقل إلى
مالا نهاية. ولكنهما نقضا ركننا قويا استند إليه
الجبرية فى تأييد عقيدتهم، ونصرا مذهبهما القائل بأن
الله تعالى لا يتدخل فى الجزئيات، وأن أفاعيل
الطبيعة تحدث تلقائيا بموجب قوانين الكمون والتولد
وسواها، وأن أفعال الإنسان تنتج عن إرادته وليس
هو مكرها عليها، وليس الله هو الذى يكرهه على

الإتيان بها.

لقد انتقد الجاحظ نظرية الجزء الذي لا يتجزأ، وقال إن أصحابها يقعون في التناقض عندما يزعمون أن "أقل الأجسام الذى تركيبه من ثمانية أجزاء لا تتجزأ أو ستة أجزاء لا تتجزأ يستحيل جسما على طول العالم وعرضه وعمقه. فإننا لو وجدناه كذلك لم نجد بُدًا من أن نقول: إننا لو رفعنا من أو هامننا من ذلك شبرا من الجميع، فإذا كان مقدار ذلك الشبر جزءا واحدا فقد وجدناه جسما أقل من ثمانية أجزاء ومن ستة أجزاء. وهذا نقض الأصل، مع أن الشبر الذى رفعناه من أو هامننا فلا بد إن كان جسما أن يكون من ستة أجزاء أو من ثمانية أجزاء. وهذا كله فاسد"(١). فيشير الجاحظ فى هذا النص إلى ادعاء أصحاب الجزء الذى لا يتجزأ أن جزئين يجتمعان

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ٥٥.

فيؤلفان الطول، أما تأليف جسم ذي أبعاد ثلاثة:
عرض وطول وعمق فيحتاج إلى ستة أجزاء أو
ثمانية أجزاء لا يتجزأ (١).

ولقد تعرض النظام وأصحابه لنقد قوى من
المعتزلة والجبرية على السواء بسبب قولهم بنفى
الجزء الذى لا يتجزأ. فقد قال خصومه إن مذهبه
مستحيل، لأنه إذا قلنا إن الجسم يتجزأ إلى ما لا
نهاية فمعنى ذلك أنه يستحيل قطع أي مسافة من
المسافات. فمثلا إذا قطعت نملة صغيرة صخرة
تكون قد قطعت ما لا نهاية له لأن هذه الصخرة تقبل
القسمة إلى ما لا نهاية له، وهذا محال. غير أن
النظام قد وجد مخرجا لهذه المشكلة بأن قال بالطفرة،
أي أن النملة تتخطى بعض أجزاء الصخرة (٢).

ويورد الجاحظ مثلا آخر غير هذا المثل
يوضح معنى الطفرة عند النظام. ففي معرض رده

(١) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج: ١ ص ٦.

(٢) الشهرستاني: المال والنحل ج: ١، ص ٥٥ - ٥٦.

على منكرى الكمون يقول إن فى العود ناراً وبرداً.
وعند الاحتراق ينجذب البرد إلى الماء وتظهر النار.
ويرد خصومه قائلين: "لقد رأينا النار تخرج وتؤثر
بينما لم نر للبرد أثراً". أجاب النظام بأن عودة البرد
إلى الماء الذى هو أصله تم بالطفرة. ويشرح
الجاحظ هذا المعنى بقوله: "... ثم لم ينقطع ذلك البرد
إلى برد الأرض الذى كالقرص له إلا بالطفرة
والتخليف لا بالمرور على الأماكن والمحاذاة. وقام
برد الماء منه مقام قرص الشمس من الضياء الذى
يدخل البيت للخرق الذى يكون فيه، فإذا سد فمع السد
ينقطع إلى قرصه وأصل جوهره" (١).

إن النظام هو الذى ابتدع نظرية الطفرة، أما
نظرية الجزء الذى لا يتجزأ أبداً فلم يبتدعها وإنما
هى مأخوذة عن فلاسفة اليونان. يقول الشهرستاني:
"إن النظام وافق الفلاسفة فى نفي الجزء الذى لا

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٥، ص ١٩ - ٢٠.

يتجزأ وأحدث القول بالطفرة" (١). ولكنه لم يصرح بأسماء هؤلاء الفلاسفة، ولعله يقصد بهم الفلاسفة اليونان الذين عارضوا "ديموقريطس" ونظريته في الذرة، ومنهم الرواقيون وزينون الإيلي القائلون بأن المادة يمكن تجزئتها إلى ما لا نهاية، ومنهم أفلاطون وأرسطو وأنبادوقليس وغيرهم الذين ذهبوا إلى أن الأجسام تتكون من أربعة أركان هي النار والهواء والماء والتراب. وينسب الجاحظ إلى النظام أقوالا تؤيد هذا الرأي كقوله: "إن الغالب على العالم السفلى الأرض والماء، والغالب على العالم العلوى النار والهواء" (٢). وكقوله: "إن الحطب عند انحلال أجزائه وتفرق أركانه التى بنى عليها ومجموعاته التى ركب منها وهى أربع: نار ودخان وماء ورماد.." (٣).

ويزعم المستشرق "بريتزل" أن البحث في الجزء الذى لا يتجزأ "حدث أول ما حدث عندما

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ج ١، ص ٥٥ .

(٢) الجاحظ: الحيوان ج ٥، ص ١٩ .

(٣) المصدر السابق ج ٥، ص ١١ .

ذهب النظام إلى أن الجسم يقبل الانقسام إلى غير
نهاية" (١).

والحق أن النظام ليس أول قائل بمذهب
الجوهر الفرد إنما أبو هنيل العلاف هو أول قائل به
كما قلنا سابقا.

هذا وقد أشار الجاحظ إلى أن مصطلح الجوهر
الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ كان شائعا بين المتقنين
حتى إننا نجده قد ورد عند بعض الشعراء كأبي
نواس الذي يقول:

يا عامد القلب منى هلا تذكرت حلا
تركت منى قليلا من القليل أقل
يكاد لا يتجزأ أقل في اللفظ من لا (٢).
كما أننا نجد الجاحظ يستعمل مصطلح الجزء
الذي لا يتجزأ في مجال التندر والسخرية على لسان

(١) بينيس: مذهب الذرة عند المسلمين، ص ١٤.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٩٨.

أحد المتتدرين حيث يقول: "قال (أبو كعب): وأتانا (موسى بن جناح) بأرزة، ولو شاء إنسان أن يعد حبها لعهده، لتفرقه وقلته. قال: فنثروا عليها لبكة من دبس مقدار نصف أسيكرة، فوقعت ليلتذ في فمي قطعة — وكنت إلى جنبه — فسمع صوتها حين مضغها، فضرب يده على جنبى ثم قال: أجرش يا أبا كعب أجرش. قلت: ويلك، أما تتقى الله! كيف أجرش جزءا لا يتجزأ" (١).

الواقع أن هذا الخبر الطريف يدل على تهكم الجاحظ وسخريته من نظرية الجزء الذى لا يتجزأ، كما يدل على انتشار هذا المصطلح بين فئات المجتمع. ويبدو هذا التهكم مرة أخرى عند الجاحظ فى رسالة الترييع والتدوير حيث يقول مخاطبا أحمد ابن عبد الوهاب الذى يسخر منه: "فلا تراحم البحار بالجداول، والأجسام بالأمراض، وما لا يتناهى

(١) الجاحظ: البلاء ص ١٢٨.

بالجزء الذى لا يتجزأ" (١).

ولكن إذا كان الجسم يتركب من عدة عناصر أو أركان حسب بعض الآراء، أو من أجزاء لا تتجزأ حسب بعض الآراء الأخرى، فما العلاقة بين هذه العناصر أو الأجزاء داخل الجسم؟ الواقع أن أصحاب المذهب الأول يقولون إن هذه العناصر التى تكون الجسم توجد متداخلة فيما بينها، وهذا ما يسمى بنظرية المداخلة، بينما يقول أصحاب المذهب الذرى أن الأجزاء توجد داخل الجسم متجاورة، وهذا ما يسمى بنظرية المجاورة.

إن الجاحظ يشير إلى هذين المذهبين وهو يتكلم عن النار وكمونها فى الأجسام فيقول: " .. نبدأ بالأخبار عنها وبنائها (النار) وعن نفس جوهرها، وكيف القول فى كمونها وظهورها .. وعن كونها

(١) الجاحظ: رسالة الترتيب والتدوير ص ٧٢.

على المجاورة كان ذلك أم على المداخلة.."(١).

ويذهب الجاحظ إلى أن النار متداخلة في العود مع الماء والهواء والرماد، وليست متجمعة في قسم فيه بحيث تحتل طرفا منه، بينما يحتل الماء الطرف الآخر مثلا، وينحصر الهواء في الوسط، وإنما النار في جميع العود كامنة فيه وسائحة وهي أحد أخلاطه "والجزء الذى يرى منها فى الطرف الأول غير الجزء الذى فى الوسط، والجزء الذى فى الوسط غير الجزء الذى فى الطرف الآخر.."(٢).

هذا هو مذهب الجاحظ وأستاذة النظام، أما أصحاب الأعراض والجبرية والذريون فيرفضون نظرية المداخلة ويقولون إن "النار التى تراها أكثر من الحطب إنما هى ذلك الهواء المستحيل، وليس أنها إذا عدت فقد انقطعت إلى شكل لها علوى

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ٥.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ٨١ - ٨٢.

واتصلت إلى تلادها، ولا أن أجزاءها أيضا تفرقت في الهواء، ولا أنها كانت كامنة في الحطب ومتداخلة فيه، فلما ظهرت انبسطت وانتشرت، وإنما اللهب هواء استحال نارا، لأن الهواء قريب القرابة من النار والماء هو حجاز بينهما^(١). وهكذا يشغل الهواء والنار والماء والرماد أماكن مستقلة في الحطب، وهي تتجاور دون أن تتداخل. فالنار تحتل حيزا منه والهواء يحتل قسما آخر والماء يحجز بينهما.

هذا، ويلاحظ "بيرتزل" أن المتكلمين الذريين لم يهتدوا إلى القول بالخلاء، ويرجع السبب في ذلك إلى أنهم لم يقصدوا إلى دراسة الطبيعة في حد ذاتها. يقول "بيرتزل": "وكذلك لا نجد ذكرا لما يتصل بفكرة الجوهر الفرد بحكم الضرورة العقلية من القول بوجود الخلاء، وذلك رغم أن ما بحثه المتكلمون من

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ١٥ - ١٦.

مسألة المماسمة والمجاورة والتداخل بين الجواهر،
كما نجد ذلك في المقالات (يقصد مقالات الإسلاميين
للأشعري)، كان يجب أن يؤدي مباشرة إلى فكرة
الخلاء .."(١).

ج - الجوهر والعرض:

الجوهر والعرض مقولتان يونانيتان نجدهما
في الفلسفة اليونانية وبخاصة لدى أرسطو، ومنها
انتقلنا إلى الفلسفة الإسلامية إثر حركة الترجمة التي
أدت إلى وضع التراث اليوناني في متناول أيدي
المسلمين.

لقد استعمل الجاحظ "الجوهر" بمعنى المعدن
حيث يقول: "الفلز: جوهر الأرض من الذهب
والفضة والنحاس والآثك وغير ذلك"(٢).
كما استعمل الجاحظ كلمة "الجوهر" بمعنى

(١) بينيس: مذهب النرة عند المسلمين ص ١٤١ .

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج١ ص ٣١ والحيوان ج١ ص ٦ .

الجسم حيث يقول: "الماء هو الجوهر القابل لجميع القوى" (١). واستعمله أيضا بمعنى "الجنس" في قوله: "والجنس عين الجوهر وذاته" (٢).

وكما نعلم فإن أرسطو قد ميّز بين نوعين من الجواهر هما: الجوهر الأول أو الأعيان المفردة، والجوهر الثنائي أو النوع والجنس "فالجوهر الموصوف بأنه أول بالتحقيق والتقديم والتفضيل فهو الذى لا يقال على موضوع ما ولا هو فى موضوع ما، ومثال ذلك فيها إنسان ما وفرس ما. فأما الموصوفة بأنها جواهر ثوان فهي الأنواع التى توجد فيها الجواهر الموصوفة بأنها أولى، ومع هذه الأنواع وهذه الأجناس أيضا.. (٣).

أما العرض فهو خلاف الجوهر، وكان موضع خلاف شديد بين مفكرى الإسلام. ويفهم من

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ٨٩.

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٣١٩.

(٣) أرسطو: المنطق، تحقيق عبد الرحمن بدوى، القاهرة ١٩٤٨ ج ١ ص ٧.

كلام الجاحظ المنسوب إلى النظام أن كل ما يرى
ويشم ويلمس ويذاق جسم وبالتالي هو جوهر وأنه لا
يوجد عرض سوى الحركة (١).

وعلى سبيل المثال يعد النظام النار التي في
الخطب والزيت الذي في السمس والزيتون
جوهرين، وكذلك الحلاوة والمرارة والصفرة
والحمرة والخضرة، وباختصار جميع الطعوم
والروائح والألوان. ثم نراه ينتقد أصحاب الأعراض
الذين يقولون إن المرارة والحلاوة عرضان، بينما
الزيت والخل جوهران، ونسمعه يقول كما يروى
الجاحظ عنه: "وإن زعم الزاعم أن الحلاوة والمرارة
عرضان، والزيت والخل جوهران، وإذا ألزم من
قال ذلك في حلاوة العسل وحموضة الخل وهما
طعمان، ألزمه مثل ذلك في ألوانهما، فيزعم أن سواد
السبج وبياض الثلج وحمرة العصفور، وصفرة الذهب

(١) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج ٢ ص ٣٨.

وخضرة البقل إنما تحدث عند رؤية الإنسان، وإن كانت المعاينة والمقابلة غير عاملتين في تلك الجواهر. فإذا قاس ذلك المتكلم في لون الجسم بعد طعمه، وفي طوله وعرضه وصورته بعد رائحته، وفي خفته وثقل وزنه كما قاس في رخاوته وصلابته، فقد دخل في باب الجهالات، وزعم أن القربة ليس فيها ماء، وأن وجودها باللمس ثقيلة مركوزة، وإنما تخلق عند حل رباطها" (١).

وينتقد "النظام" "أرسطو" لقوله بالأعراض إلى جانب الجواهر. إن أرسطو الذي يزعم أن الماء الممازج للأرض لم ينقلب أرضاً، وأن النار الممازجة للماء لم تنقلب ماء، وكذلك ما كان من الماء في الحجر ومن النار في الأرض والهواء .. لم يصل إلى أن يزعم أن في الأرض عرضاً يحدث وبالأحرى أن يعجز عن تثبيت كون الماء والأرض

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ٨ - ٩.

والنار عرضاً (١).

كما يشير الجاحظ إلى فئة من المتكلمين يسميهم أصحاب الأعراض، منهم ضرار بن عمرو وجهم بن صفوان. وإنما سموا بهذا الاسم لأنهم يقولون إنه لا يوجد في الأصل سوى أعراض، وأن الأجسام تتركب من الأعراض، إنهم بذلك يخالفون النظام وأصحابه الذين قالوا بالعكس أنه لا يوجد سوى أجسام أو جواهر، ولم يعترفوا إلا بعرض واحد هو الحركة (٢).

ويظهر أن الجاحظ لا يوافق للنظام ولا أصحاب الأعراض. وإنما يقول بوجود الأجسام والأعراض. والعرض عنده هو كل ما ليس بجوهر، ولا يقوم بنفسه وإنما في الجوهر أو الجسم. والعرض من عمل الجسم، أما الجسم فلا يكون إلا من

(١) الجاحظ: الحيوان ج٥، ص ٥٣.

(٢) المصدر السابق ج٥ ص ١٠ - ١١.

جسم أو من مخترع ومبدع الأجسام وهو الله تعالى (١).
هذه هي القضايا التي أثارها الجاحظ فيما يتعلق
بالجماد، أما فيما يتعلق بالنبات فإننا نجد أن الجاحظ لم
يتوسع في دراسته كما توسع في الحديث عن الجماد
والحيوان والإنسان؛ فلا نجد عنده - فيما يتعلق بالنبات -
إلا حديثاً عابراً عن تصنيف النبات، حيث يقول: "ويقال
إن جميع نبات الأرض على ثلاثة أصناف: نجم وشجر
ويقطين، فما كان قائماً على ساق فهو نجم، وما كان
منفرجاً ذا أغصان ومتشعباً بأفنان فهو يقطين، وفي
القرآن: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ (٢).

والمعروف عند علماء النبات أن النجم ما ليس
قائماً على ساق، وأن الشجر هو ما قام على ساق، أما
اليقطين فهو ما له ساق ولكنه لا يقوم عليها نحو الدباء
والقرع والبطيخ.

(١) الجاحظ: آثار الجاحظ، تحقيق عمر أبو النصر، بيروت ١٩٦٩
ص ٢٧٢.

(٢) الجاحظ: البرصان والعرجان .. ص ١٨٠.

والآن نبدأ فى الحديث عن الحيوان حيث إن
الجاحظ يقسم الكائنات إلى جماد ونام، والنامى إلى
نبات وحيوان. وحيث أننا نجد الجاحظ قد توسع فى
الحيوان ولم يتوسع فى النبات فقد اكتفينا هنا بهذه
الإشارة التى أوردناها، وبعدها ننتقل إلى الحديث عن
الحيوان، وهو حديث مفصل.

الفصل الرابع

الحيوان

أ - مصادر ثقافة الجاحظ فى علم الحيوان:

يتركز كلام الجاحظ عن الحيوان فى كتابه "الحيوان"؛ هذا الكتاب الضخم الذى يعد موسوعة علمية شاملة تناول فيها الجاحظ المعارف الطبيعية، والمسائل الفلسفية، وسياسة الأفراد الأقوام، ونزاع أهل الكلام وسائر الفرق والطوائف الدينية والمسائل الجغرافية مما يتعلق بخصائص البلدان وتأثير البيئة فى الحيوان والإنسان والأشجار، والأجناس البشرية وتباينها، وبعض قضايا التاريخ، والطب والأمراض التى تعترى الإنسان والحيوان، وكثيرا من المفردات الطبية، سواء كانت نباتية أو حيوانية أو معدنية، ومسائل الفقه والدين، وما يتعلق بذلك من آيات الكتاب الحكيم وحديث سيد المرسلين.

فمن أين استقى الجاحظ معارفه فى علم الحيوان؟ وهل كان مبدعا لهذا العلم أم كان فى جانب منه مبدعا وفى الآخر متبعا؟

الواقع أن هناك جهودا سابقة على الجاحظ فى دراسة الحيوان، ولعل اليونان وجهودهم فى هذا الحقل العلمى كانت أسبق من الجاحظ حيث إنهم كانوا أصحاب دراسات واسعة فى هذا المجال وألفوا كتباً خاصة بالحيوان "منها كتاب الحيوان لديمقراطيس ذكر فيه طبائعه ومنافعه، وكتاب الحيوان لأرسطاطاليس، تسع عشرة مقالة .. ولأرسطو أيضاً كتاب فى نعت الحيوان الغير الناطق" (١).

وإن كان البابليون والمصريون قد سبقوا اليونانيين فى هذا العلم، إلا أن أرسطو (٣٨٤ - ٢٢٢ ق. م.) يعد أول عالم قام بمجهود يذكر فى علوم الحياة والفلسفة والسياسة وغيرها من العلوم الأخرى. ومن خلال دراسة آثاره نعرف أنه قد استخدم التجربة والاستنتاج دليلاً حقيقياً للمواضيع التى مارسها.

ومن دراسة آرائه يظهر أنه كان على قدر من المعرفة لا يستهان به فى علم التشريح ووظائف

(١) حاجى خليفة: كشف الظنون ج١ ص ٤٥٦.

الأعضاء وتكوين الأجنة، وتاريخ حياة كثير من الحيوانات التى عرف نحو خمسين ومائتى نوع منها فى بيئته، متتبعا غذاءها وتكاثرها وتركيبها.

وإذا تصفحنا كتب الجاحظ يظهر لنا أثر أرسطو فى كثير من فكر الجاحظ وأسلوبه، وقد ذكر الجاحظ أرسطو فى كثير من المواضع ونوه بذكره، معتمدا عليه، أو ناقدا إياه.

على أية حال يظهر لنا من خلال قراءة كتاب الحيوان أن هناك مصادر متعددة، وينابيع مختلفة استقى الجاحظ منها معارفه فى علم الحيوان هي:
أولا: القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف. وقد استخدم الجاحظ هذا المصدر للتدليل على قيمة الحيوان والحشرة، مهما صغر جرمها، وكذلك للتدليل على أن الحيوانات تحشر يوم القيامة، ولاستخراج الفتاوى التى تتعلق بالحيوانات والحشرات أيضا.

ثانياً: الأخبار العربية والشعر العربي والأمثال.
 فالشعر العربي، وبخاصة البدوي منه، قد تحدث عن
 الحيوان حديثاً طويلاً، تحدث عن الأنيس منه، ولم
 يهمل الوحش، بل أشرك بين هذا وذاك. ومعرفة
 الأعراب للحيوان جيدة ويذكر الجاحظ السبب في
 ذلك قائلاً: "وربما، بل كثيراً ما يبتلون بالناب
 والمخلب، واللدغ واللسع، والعض والأكل؛ فخرجت
 بهم الحال إلى تعرف الجافى والجارج والقاتل، وحال
 المجنى عليه، والمجروح والمقتول،.. وكيف الداء
 والدواء، لطول الحاجة، ولطول وقوع البصر، مع ما
 يتوارثونه من المعرفة بالداء والدواء" (١). ثم يبين
 الجاحظ سبب اعتماده على الشعر العربي فيقول:
 "وقل معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من
 الفلاسفة، وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين إلا

(١) الجاحظ: الحيوان ج ٦ ص ٢٩.

ونحن قد وجدناه أو قريباً منه في أشعار العرب" (١)..
التي كان عليها أكثر اعتماده.

ثالثاً: الخبرة الشخصية والثقافة التي تلقاها الجاحظ من مجتمعه، وذلك الولوع الذي كان يدفعه إلى السؤال ممن يتوسم فيه العلم، وكان الجاحظ بطبعه شعبياً، مع أنه كان مقرباً نافذ الكلمة عند الوزراء والخلفاء، فهو قد جالس الملاحين مراراً، وسمع من أحاديثهم، وكذلك صائدى العصافير وأصحاب الطيور والحوائث والفيالين وغيرهم. وكان الجاحظ صاحب تجربة شخصية، فكان إذا سمع بشيء وساوره الشك في صحته يقوم بالتجربة بنفسه، كتجربة السم لبعض الحيوان أو الأدوية وغيرها.
رابعاً: كتب الفرس والهنود؛ إلا أن آراء الهنود أكثرها يتعلق بالخيال، أما كتب الفرس فتتعلق بالثنوية وأكثرها آراء زرادشت، والجاحظ يفند هذه الآراء دائماً.

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٦٨.

خامسا: تلك العقلية الحجاجية التى ولدها العقل
المعتزلى متأثرا بعلم الكلام. وهذه الحجاجات
الكلامية مبنوثة فى الكتاب، وقد خصص الجاحظ
الجزء الأول والثانى منه لهذا الحجاج، فنرى هناك
قوله: "وقال صاحب الديك" و"قال صاحب الكلب"
و"قال صاحب النعامة". ويذكر الجاحظ فى هذا
الجدال محاسن كل حيوان ومساوئه، ومعلومات
كثيرة عنه، وبلا شك ليس هناك اثنان متجادلان، فهو
من كلام الجاحظ، ليدل بذلك على قدرته الكلامية
وسعة علمه، فهو يقول فى ذم الديك ومدح الكلب:
"والديك لا يالف منزله ولا ربه، ولا ينازع إلى
دجاجته ولا طروقتة، وهو مع ذلك أبله لا يعرف
أهل داره، ومبهوت لا يعرف وجه صاحبه.. والكلب
على ما فيه يعرف وجه صاحبه..(١)" ويقول على
لسان صاحب الديك يذم الكلب: "فهو سراق،

(١). المصدر. السابق ج ٢. ص ١٩٥ - ١٩٦.

وصاحب بيات، وهو نباش، وأكل لحوم الناس(١)"
ولعل الجاحظ كان يرمز بهذا النزاع وأمثاله إلى
أقوام وطوائف بعينها، وبخاصة أن الجاحظ له باع
طويل في الحديث عن الشعوبية.

سادساً: كتاب الحيوان لأرسطو؛ وقد نقل الجاحظ
عن أرسطو نصوصاً ليست من الكثرة بمكان، إذا
قيست بما أخذه من العرب وأشعارهم وأخبارهم.
غير أنه من الجدير بالذكر القول بأن الجاحظ قد سلك
مع أرسطو مسلك الرأي المعتزلي الحرّ، فما قبله
عقل الجاحظ أيده بالأدلة، وما لم يقبله عقله رده.
والجاحظ بهذا لا يقبل الأمور بعلاتها، فهو في
بعض الأحيان يعتذر عن أرسطو لأنه ربما يكون
المترجمون قد أخطأوا في النقل، أو أنهم لم يتوخوا
الدقة في ترجمتهم" ولعل المترجم قد أساء في
الإخبار عنه"(٢).

(١) المصدر السابق ج٢ ص ١٩٣ - ١٩٤.

(٢) المصدر السابق ج٤ ص ٣٤.

ويجدر بنا أن نقف في هذا الفصل وقفة متأنية
لنقارن بين أرسطو والجاحظ حتى نثبت أصالة
الجاحظ في دراسته عن الحيوان.

ب - السبب في تأليف الجاحظ للحيوان:

يعد كتاب "الحيوان" أضخم كتب الجاحظ،
حيث يقع في سبعة أجزاء تزيد صفحاتها على ثلاثة
آلاف صفحة، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على
اهتمام الجاحظ بالحيوان اهتماماً بالغاً، فما الذي حمله
على تأليف هذا الكتاب الضخم، وعلى تحمل الجهد
الذي بذله في سبيل تصنيفه؟ لقد أشار الجاحظ مراراً
في ثنايا حديثه عن الحيوانات إلى أن حكمة الله
تتجلى في تكوينها وتشكل دليلاً قوياً على قدرة
الخالق سبحانه وعجيب إبداعه (١). غير أن توضيح
مثل هذه الفكرة لا يحتاج إلى تأليف كتاب بهذه
الضخامة، ولا سيما أن الجاحظ قد وضع مؤلفاً حول
هذا الموضوع عنوانه "الدلائل والاعتبار على الخلق

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ٧، ص ٩.

والتدبير" ألمّ فيه بمختلف جوانب الموضوع وذكر
مختلف الأدلة على وجود الله تعالى وتدبيره في
خلقه، فلا حاجة إلى تأليف كتاب آخر حول
الموضوع نفسه. ومن ناحية أخرى فإننا نجد الجاحظ
يعلن أن كتابه هذا ليس بحثاً في الفلسفة والمذاهب
الكلامية، ولذلك لن يثير سخط فرقة أو رضى فرقة
أخرى، لأنه لا يتناول "إيجاب الوعد والوعيد
فيعترض عليه المرجىء، ولا تفضيل علي فينصب
له العثماني، ولا هو في تصويب الحكمين فيتسخطه
الخارجي، ولا هو في تقديم الاستطاعة فيعارضه من
يخالف التقديم ولا هو في تثبيت الأعراض فيخالفه
صاحب الأجسام(١)".

الواقع أننا نلاحظ من استعراض الكتب التي
صنفها أساتذة الجاحظ ومعاصروه أن الحيوان كان
الموضوع الأكثر جاذبية لأقلام المصنفين والعلماء
فتناولوه كل منهم بالبحث وصنف فيه كتاباً أو أكثر.
ومن الطبيعي أن يتأثر الجاحظ بذلك الواقع فاتجه إلى

(١) المصدر السابق، ج٧، ص ٧.

معالجة هذا الموضوع الذى حظى باهتمام أبناء عصره من العلماء.

وهناك افتراض يرد على الذهن وهو أن يكون الجاحظ قد أقدم على تأليف هذا الكتاب معارضة لكتاب أرسطو فى الحيوان. ومن المؤكد أن الجاحظ قد اطلع على ذلك الكتاب الذى نقله إلى العربية ابن البطريق (٢٠٠هـ) ويضم تسع عشرة مقالة (١). ويؤيد هذا الافتراض كثرة رجوع الجاحظ إلى أرسطو، فقد ذكره مرات عديدة وأورد آراءه بصدد مسائل شتى، معبرا عنه بصاحب المنطق، وبذلك يعد أرسطو من أهم مصادر، بالإضافة إلى المصادر الأخرى التى ذكرناها سابقا. غير أن الجاحظ لم يرض بأن يكون مقلدا لأرسطو أو ناقلا عنه، وإنما أراد أن يكون له ندا ومنافسا يباريه فى هذا الميدان ويجدّ فى أن يسبقه ويتفوق عليه، لهذا

(١) لم يرجع الجاحظ إلى كتاب "جوامع كتاب أرسطاطاليس فى معرفة طبائع الحيوان" لثامسطيوس، ترجمة إسحق بن حنين، لأنه لم يذكره. انظر: عبد الرحمن بدوى: شروح على أرسطو مفقودة فى اليونانية ورسائل أخرى (دار المشرق - بيروت، ط١، ١٩٧٢م).

نراه ينتقده ويخالفه فى كثير من المسائل، وفى المنهج وفى الغاية.

ويجدر بنا قبل أن نقارن بين كتابى أرسطو والجاحظ أن نأتى بوصف لبعض الحيوانات ذكرها كل منهما حتى نبين مدى تأثر الجاحظ بأرسطو وإطلاعه على كتابه.

ج - وصف بعض الحيوانات بين أرسطو والجاحظ:
وسنقارن هنا بين بعض أنواع الحيوانات التى ذكرها أرسطو كما جاءت فى كتابه "طبائع الحيوان" وترجمه العالم العربى "ابن البطريق" والتى ذكرها أيضا أبو عثمان الجاحظ، فى كتابه الحيوان، وندع للقارئ المعاصر أن يقف ليتأمل ما جاء به علم الحيوان الحديث، وأى الأقوال كانت أقرب إلى الواقع والحقيقة العلمية فيما بين هذين العالمين: الاغريقى والإسلامى.

١ - النمل:

أ - قول أرسطو فيه:

"وسائر أجناس النمل كثير النمل كثير العمل والمكسب أكثر من جميع أصناف الحيوان المحرز

الجسد وأيضا الدبر الكبير والصغير وجميع الأجناس
الملائمة لهذه الذكورة. وعمل النمل ظاهر بين، إذ إن
جميع النمل أبدا يسير فى مسلك واحد، وأنه يكتنز
طعامه وإذا كانت ليال مقمرة يعمل أيضا" (١).

ب - قول الجاحظ:

"وقد علمنا أن الذرة (أى النمل) تدخر للشتاء
فى الصيف، وتتقدم فى حال المهلة ولا تضيع أوقات
إمكان الحزم. ثم يبلغ من تفقدها وحسن خبرها
والنظر فى عواقب أمرها، أنها تخاف على الحبوب
التي ادخرتها للشتاء فى الصيف، أن تعفن وتسوس،
ويقبلها بطن الأرض فتخرجها إلى ظهرها لتبيسها
وتعيد إليها جفوفها، وليضربها النسيم وينفى عنها
العفن والفساد. ثم ربما كان - بل يكون أكثر مكانها
نديا، وإن خافت أن تثبت نقرت موضع القطمير (أى
شق النواة) من وسط الحبة، وتعلم أنها من ذلك

(١) أرسطو: طباع الحيوان، ترجمة ابن البطريق، ص ٤٢٦.

الموضع تبتدئ وتثبت وتتقلب، فهي تقلب الحب كله أنصافاً، فأما إذا كان الحب من حب الكزبرة فلقته أرباعاً، لأن أنصاف حب الكزبرة ينبت من بين جميع الحبوب. فهي على هذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوان حتى ربما كانت في ذلك أحزم من كثير من الناس. ولها مع لطافة شقصها وخفة وزنها، في الشم والاسترواح (التشمم)، ما ليس لشيء، وربما أكل الإنسان الجراد أو بعض ما يشبه الجراد، فتسقط من يده الواحدة أو صدر الواحدة، وليس يرى بقربه ذرة ولا له بالذر عهد في ذلك المنزل، فلا يلبث أن تقبل ذرة قاصدة إلى تلك الجرادة فترومها وتحاول قلبها ونقلها وسحبها وجرها، فإذا أعجزتها بعد أن بلغت بها عذرا مضت إلى جحرها راجعة، فلا يلبث ذلك الإنسان أن يراها قد أقبلت، وخلفها صويحباتها كالخيط الأسود الممدود حتى يتعاون عليها فيحملنها. فأول ذلك صدق الشم

لما لا يشمه الإنسان الجائع. ثم بعد الهمة والجراءة على محاولة نقل شيء فى وزن جسمها مائة مرة، وأكثر من مائة مرة. وليس شيء من الحيوان يقوى على حمل ما يكون ضعف وزنه مراراً غيرها. وعلى أنها لاترضى بأضعاف الأضعاف، إلا بعد انقطاع الأنفاس" (١).

٢ - النحل:

أ - قول أرسطو فيه:

"وفى أعمال أصناف النحل وتديره لمعايشه اختلاف كثير. وإذا أصاب النحل خلية نقية نظيفة يبنى فيها بيوتا من الموم وإنما يأتى ذلك الموم من سائر الأزهار ومن أطراف الشجر ومن الخلاف وسائر الأصناف التى فيها رطوبة لزجة. وهو يبنى أولاً بيوتا معمولة من شمع، أعنى بالبيوت: الثقب التى يأوى فيها النحل ثم يهيىء البيوت التى يأوى

(١) الجاحظ: الحيوان ج٤ ص ٥ - ٩.

إليها ملوك النحل، وذكرورة النحل.. والنحلة الكريمة تكون صغيرة مستديرة الجسد مختلفة اللون. وتكون أيضا نحلة أخرى مستطيلة الجسد شبيهة بالنحل الذكر. وتكون نحلة أخرى كبيرة عظيمة البطن. فأما النحلة الذكر فجثته أكبر من سائر جثث النحل غير أنه ليس له حمة، وهو كسل رديء الحركة. وبين النحل الذى يرعى فى السهل وبين النحل الذى يرعى فى الجبال اختلاف: فإن الذى يرعى فى الفيافي والجبال أصغر وأكثر عملا.. إن النحل مرتب على كل حال من الأعمال، أعنى أن بعض النحل يأتى برحيق الزهر، وبعضه يأتى بالماء؛ وبعضه ينقى ويصلح الموم؛ ومنه ما يسقى ماء إذا كان له فراخ. وليس يجلس النحل على جسد آخر ولا يذنو من أصناف الأطعمة، وليس يعمل النحل زمانا معروفاً ولا وقت الابتداء؛ وإنما يبدأ العمل إذا كان مخصب الحال فى أى زمان كان من السنة.. وإذا قطعت شيئاً

من الشهد القوام على تعاهد النحل، يتركون للنحل كفافها من العسل ليكون طعاما لها فى الشتاء؛ فإن كان ذلك الطعم كفافا، سلم النحل الذى فى الخلية.. وإذا هلك شىء من النحل فى داخل الخلايا، أخرجته الأحياء إلى خارج. وهذا الحيوان نقى نظيف جداً، أكثر من جميع الحيوان، ولذلك يلقى زبله وهو يطير مرارا شتى، لأنه منتن.. والنحل يخرج ماكان منه بطلا وما لايقوى على العمل، وهو يقسم الأعمال كما قلنا فيما سلف، ومن النحل ما يسكت حتى تنهض واحدة وتطير مرة أو مرتين؛ فإذا سمعه سائر النحل طار كله معه ثم تعود أيضا وتصر أولا وتفعل ذلك رويداً رويدا حتى تمر بها نحلة واحدة وتصر وكأنها تعلمها أنه قد بلغ وقت الموم، وتسكت بغته. وإنما يعرف خصب الخلية من قبل كثرة الدوى وكثرة حركة النحل عند خروجه ودخوله (١).

(١) أرسطو: طباع الحيوان، ص ٤٢٩ - ٤٤١.

ب - قول الجاحظ:

"والنحل تجتمع فتقسم الأعمال بينها، فبعضها يعمل الشمع، وبعضها يعمل العسل، وبعضها يبنى البيوت، وبعضها يستقى الماء ويصبه فى الثقب، ويلطخه بالعسل. ومنه ما يكرر إلى العمل، ومن النحل ما يكفه (يجمعه) حتى إذا نهضت واحدة منها طارت كلها. يقال: "بكر بكور اليعسوب"، يريد أمير النحل، لأنها تتبعه غدوة إلى عملها. ومنها ما ينقل العسل من أطراف الشجر، ومنها ما ينقل الشمع الذى تبنى به. فلا تزال فى عملها حتى إذا كان الليل آبت إلى مآبها(١)"

٣ - العنكبوت:

أ - قول أرسطو فيه:

"وفى العنكبوت جنس آخر حكيم جداً، دقيق الخلق. فإنه ينسج أولاً، ويمد الشعر ناحية الحدود والأوتاد ثم يبتدىء من الوسط ويكون لذى السدى عظم صالح، ثم يعمل اللحمه ويهيء موضع ما يصيد فى مكان آخر، ويهيئ موضع الصيد فى الوسط.

(١) الجاحظ : الحيوان ج٥، ص ٤١٦ - ٤١٨.

فإذا وقع عليه شيء وتحرك الوسط، يربط
 ويزداد النسيج على ذلك الحيوان حتى يضعف. فإذا
 علم ضعفه، حمله وذهب به إلى خزانته. وإن كان
 جائعا من ساعته، يمص ما فيه من الرطوبة ويخليه..
 وإذا ولد العنكبوت، قوى من ساعته على النسيج
 وذلك الذى ينسج به لا يخرج من داخل جوفه مثل
 فضله، كما قال ديمقراطيس، بل من خارج جسده،
 فإنه على جسده مثل اللحاء، وهو شبيه بما يبرز
 شعره وشوكه من الحيوان. والعنكبوت يلف وينسج
 نسجه على الحيوان الأعظم من الذباب أيضا، فإنه
 ينسج على السام أبرص الصغير ويربط فاه أولا.
 وإذا فعل ذلك واحترز حينئذ يدنو منه ويعضه
 ويمص الرطوبة التى فيه" (١).

ب - قول الجاحظ:

"ومن العناكب جنس يصيد الذباب صيد
 الفهود وهو الذى يسمى "الليث"، وله ست عيون وإذا
 رأى الذباب لطئ بالأرض (لصق بها)، وسكن

(١) أرسطو: طباع الحيوان، ص ٤٢٧ - ٤٢٨ .

أطرافه، وإذا وثب لم يخطئ. وهو من آفات الذبان، ولا يصيد إلا ذبان الناس. ومنها الأجناس طوال الأرجل، والواحدة منها إذا مشت على جلد الإنسان تبثر (ظهرت فيه بثور)، ويقال إن العنكبوت الطويلة الأرجل إنما اتخذت بيتا وأعدت فيه المصايد والحبال والخيوط التي تلتف على ما يدخل بيتها من أصناف الذبان وصغار الزنابير، لأنها حين علمت أنها لا بد لها من قوت وعرفت ضعف قوائمها، وأنها تعجز عما يقوى عليه الليث احتالت بتلك الحيل؛ ومنها جنس ردىء، مشنوء الصورة (البغيض المكروه) غليظ الأرجل، كثيرا ما يكون فى المكان التراب من الصناديق والقماطر والأسفاط" (١).

٤ - الحرباء:

أ - قول أرسطو فيه:

"وأما الحيوان الذى يسمى باليونانية فماليون، فجميع جسده شبيه بجسد السام أبرص، فأما أضلاعه فطويلة تنتهى إلى قرب أسفل بطنه مثل أضلاع

(١) الجاحظ: الحيوان، ج٥ ص ٤١٢ - ٤١٦.

السّمك. فأما وجهه فشبيه بوجه الحيوان الذى يقال له خويرو فيثيقوس: مركب من قردٍ وخنزير، وله ذنب طويل جداً، آخره دقيق يلتوى جداً مثل سير وجهته مرتفعة عن الأرض أكثر من السام أبرص وما يشبهه. وكل واحد من رجليه مجزأً بجزئين، قياس بعضها إلى بعض شبيه بقياس إبهام الإنسان إلى سائر كفه، وكل واحد من تلك الأجزاء مجزأً بأصابع، وله أظفار، أعنى مخالب شبيه بمخالب الطير المعقف الأظفار. وكل جسده خشن مثل جسد الجرذون (أى مثل التمساح فى اليونانى). وكلتا عينيه غائرة عظيمة مستديرة يحدق بها، بها جلد شبيه بجلد جميع جسده. وليس يغطى عينيه بذلك الجلد البتّة. وهو يحرك عينيه إلى كل ناحية بنوع مستدير. فأما تغيره فإنه يكون إذا نفخ جلده، وجلده ولونه يكون أيضاً إلى السواد ما هو، مثل لون الجرذون، ويكون أيضاً باهتاً (أصفر) مثل لون السام أبرص، ويكون فيه سواد مبقع مثل السواد فى جلد الفهد (١).

ب - قول الجاحظ:

"الحرباء دويبة أعظم من العطاء، أكبر ما

(١) أرسطو: طباع الحيوان، ص ٧١ - ٧٣.

كان فرخاً، ثم يصغر، وإنما حياته الحر. فتراه أبداً إذا بدت جونة، يعنى الشمس قد لجأ بظهره إلى جذيع (مصغر جذع وهو ما عظم من أصول الشجر المقطع)، فإن رمضت الأرض ارتفع. ثم هو يقلب بوجهه أبداً مع الشمس حيث دارت حتى تغرب، إلا أن يخاف شيئاً، ثم نراه شابحاً بيديه (مدهما)، كما رأيت من المصلوب. وكلما حميت عليه الشمس رأيت جلده قد يخضر (١).

٥ - الحيات المائية:

أ - قول أرسطو فيها:

"وفى البحر أجناس حيات كثيرة مختلفة الألوان وليس تأوى فى الأماكن العميقة المياه جداً، بل فى الأماكن التى تقرب من البر. وليس لشيء من أجناس الحيات أرجل" (٢).

ب - قول الجاحظ:

"والحيات المائية إما أن تكون برية أو جبلية، فاكتمستها السيول واحتملتها فى كثير من أصناف

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ٦ ص ٣٦٣.

(٢) أرسطو: طباع الحيوان، ص ٨٠.

الحشرات والدواب والسباع، فتوالدت تلك الحيات وتلاقحت هناك. وكيف دارت الأمور فإن الحيات من أصل الطبع مائية. وهى تعيش فى الندى وفى الماء، وفى البر وفى البحر وفى الصخر وفى الرمل. ومن طباعها أن ترق وتلطف على شكلين: أحدهما لطول العمر، والآخر للبعد من الريف. وعلى حسب ذلك تعظم فى المياه والغياض. وكل شىء فى الماء مما يعايش السمك، مما أشبه الحيات كالمارما (هى ضرب من السمك الشبيه بالحيات) والانكليز (ضرب من حيات الماء) فإنها كلها على ضربين: فأحدهما من أولاد الحيات. انقلبت مما عرض لها من طباع البلد والماء. والآخر من نسل سمك وحيات تلاقحت، إذ كان طباع السمك قريبا من طباع تلك الحيات" (١). والآن نأتى إلى مقارنة بين كتابى أرسطو والجاحظ بعد أن أتينا بوصف لبعض أنواع الحيوانات عند كل منهما.

د - مقارنة بين كتابى أرسطو والجاحظ:
١ - لقد حاول أرسطو فى مطلع كتابه أن

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ٤ ص ١٢٨.

يضع تصنيفا للحيوانات، إلا أنه يجد صعوبة في ذلك. فهو يقسم الحيوانات تقسيما غريبا، حيث يقسمها إلى قسمين: قسم فيه دم، وقسم ليس فيه دم. ولكنه لا يتقيد بهذا التقسيم، ويحاول أن يلتمس تصنيفا آخر يعتمد فيه على تدبير المعاش والأفعال والغذاء للحيوان. وعلى هذا الأساس يقسم الحيوانات إلى مائية وبرية، وإلى طيارة وزحافة ومشاة، كما أنه يقسمها إلى فئتين: فئة تعيش في جماعات، وأخرى تعيش منفردة، وإلى نوع يأكل الحبوب، ونوع يأكل الكل، وإلى ما يتخذ مأوى وما لا يتخذ مأوى وإلى حيوانات أنيسة تعيش مع الإنسان وحيوانات وحشية (١).

وإذا كان أرسطو قد أخفق إلى حد كبير في تصنيفه للحيوانات فإننا نجد الجاحظ أكثر توفيقا من أرسطو. فعند النظر إلى ما وصل إليه الجاحظ في مجال التصنيف يتضح للباحث أن هذا العالم قد سبق كل من حاول تصنيف الحيوان بصورة أقرب إلى

(١) أرسطو: طباع الحيوان، ترجمة يوحنا بن البطريق، تحقيق عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧م، ص ٦ - ١٦ ويضم الكتاب المقالات العشر الأولى.

التصنيف العلمى الصحيح والذى أسنده الأوروبيون إلى العالم السويدي كارل لينوس.

فالجاحظ يقسم الحيوانات تقسيمات أكثر دقة وتفصيلا؛ فهو يقسمها إلى أربعة أقسام: قسم يمشى، وقسم يطير، وقسم يسبح، وقسم يزحف على بطنه. والنوع الذى يمشى ينقسم إلى أربعة أقسام: ناس وبهائم وسباع وحشرات. والنوع الذى يطير ينقسم إلى ثلاثة أقسام: سبع وبهيمة وهمج. والسبع من الطير ما يأكل اللحم خالصا، والبهيمة منه تأكل الحب خالصا، أما الهمج فليس من الطير ولكنه يطير. ثم يقسم الجاحظ الحيوان إلى فصيح وأعجم، والفصيح هو الإنسان والأعجم كل ذى صوت لا يفهم إرادته إلا ما كان من جنسه.

وعند تقسيم الطيور يقارن الجاحظ بين مختلف الحيوانات التى تطير؛ فليس عنده كل ما امتلك جناحا أو طار فهو من الطير، وهذا كلام علمى له قيمته ويعطى دلالة على اتساع تفكير الجاحظ. كذلك فى الحيوانات البحرية، فليس كل حيوان يعيش فى البحر من الأسماك، وإنما هناك العديد من الكائنات التى تختلف اختلاف كبيرا من

حيث الشكل والموقع التصنيفى والمعيشة والسلوك (١).

ومن الدراسات العلمية التى تفوق بها الجاحظ على أرسطو وأبدع فيها أيما إبداع تلك الملاحظات القيمة عن هجرة الطيور والأسماك؛ وهو بذلك قد ضرب مثالا رائعا على مدى عمق فكره الذى استمدّه من حضارة العرب والمسلمين العريقة؛ وعن ذلك يقول الدكتور محمد يحيى الهاشمى: "يحدثنا الجاحظ فى كتاب الحيوان عن الحمام الزاجل وعن كيفية رجوعه إلى وطنه، وقد رأى فى هذا الأمر عجبا، ذاكرا لنا محاورة جرت بين أبى إسحق وبين مثنى بن زهير وقول الأخير إنه يبلغ كرم الحمام ووفاءه وثبات عهده وحنينه إلى أهله أنه ربما قضى الطائر دهرا بعد أن طار منه زمنا طويلا، فمتى نبت جناحه عاد إليه، وكلما زهد فيه كان إليه أرغب. ويعلق الجاحظ على هذه القصة سائلا: هل الطير يحن إلى صاحبه أم إلى عشه الذى درج منه" (٢) .

(١) الجاحظ: الحيوان، ج١، ص ٢٦ - ٣٢.

(٢) د. محمد يحيى الهاشمى: تحليل رأى الجاحظ فى الطيور المهاجرة، مجلة الثقافة العدد ٢٨٠ السنة السادسة، القاهرة، ١٩٤٤، ص ٤٤٥.

ويقرر الجاحظ أن الباعث على رجوع الطير الحنين إلى الوطن، ويستدل على ذلك بالطيور المهاجرة "التي خرجت تقطع الصحارى والبرارى والجزائر والغياض والبحار حتى تصير إلينا فى كل عام. فإن قلت إنها ليست تخرج إلينا على سمت ولا على هداية ولا دلالة ولا على أمارة وعلامة، وإنما هربت من الثلوج والبرد الشديد، وعلمت أنها تحتاج إلى الطعم، وأن الثلج قد ألبس ذلك العالم فخرجت هاربة، فلا تزال فى هروبها إلى أن تصادف أرضا خصبا ودفئا فتقيم عند أدنى ما تجد، فما تقول عند رجوعها ومعرفتها بانحسار الثلوج عن بلادها قد اهدت طريق الرجوع؟! ومعلوم عند أهل تلك الأطراف وعند أصحاب التجارب وعند القانص أن طير كل جهة إذا قطعت رجعت إلى بلادها وجبالها وأوكارها وإلى غياضها وأعشيتها... ثم لا يكون اهداؤها على تمرين وتوطين ولا عن تدريب وتجريب، ولم تلق بالتعليم ولم تثبت بالتدبير والتقويم".

فالجاحظ أمام لغز معقد لم يتمكن العلم الحديث من حله أيضا. وقد مضى على قول الجاحظ

أكثر من أحد عشر قرنا وهو لا يزال لغزا معقدا.
إن الجاحظ فرق بين الطيور المهاجرة التي
تترك أوطانها ثم تعود إليها من غير سابق تمرين
ومعرفة وبين الحمام الزاجل الذي يتعلم ذلك، وهو
كأنه يريد أن يدل على أن الطيور تشبه البشر في
المعرفة، حيث إن هناك معرفتين هما المعرفة
الفطرية والمعرفة المكتسبة (١).

ويقارن الجاحظ هجرة الأسماك بالطيور
المهاجرة فيقول: "وأعجب من جميع قواطع الطير
قواطع السمك الأشبور والجران واليز، فإن هذه
الأنواع تأتي دجلة البصرة من أقصى البحار،
تستعذب الماء في ذلك الإبان كأنها تتمحس بحلاوة
الماء وعذوبته بعد ملوحة البحر.. ونحن بالبصرة
نعرف الأشهر التي يقبل إلينا فيها الأشبور والجران
وأصناف السمك وهي تقبل مرتين في كل سنة، ثم
تجدها في إحداها أسمن الجنس فيقيم كل جنس منها
عندنا شهرين إلى ثلاثة أشهر، فإذا مضى ذلك
الأجل، وانقطعت مدة ذلك الجنس أقبل الجنس الآخر

(١) المصدر السابق، ص ٤٤٦.

في جميع أقسام شهور السنة من الشتاء والربيع والصيف والخريف في نوع من السمك عند النوع الآخر " (١) .

إن دراسة الجاحظ لهجرة الحيوانات المختلفة ذاكر المتشابهة منها والمتباينة ، ساعياً لإقامة البراهين بالحجج المنطقية ، مشابهاً عالم الأسماك بعالم الطيور من جهة الأفعال والأعمال وبخاصة في مجال الهجرة والترحال ، هو قياس منطقي صرف أقره البحث العلمي الحديث .

٢- ويخصص أرسطو قسماً كبيراً من كتابه للحديث عن أعضاء جسم الحيوان ، وذلك في المقالات الأولى والثانية والثالثة والرابعة (٢) .

فأعضاء جسم الحيوان تتكون من رأس ووجه وحاجبين وعينين وأذن وعنق وبطن ورئة وقلب وأمعاء وجهاز تناسل وشرابين وأسنان ، ويطيل أرسطو الكلام في هذا المجال ويتعمق فيه ، فيدرس تركيبية هذه الأعضاء ويشرحها تشريحاً طبياً .

بينما نجد الجاحظ يهمل هذه الناحية غالباً ، فلم يبحث في أجزاء جسم الحيوان وكيفية تركيبها على

(١) نقلاً عن المصدر السابق

(٢) أرسطو : طباع الحيوان ص ١٧-٢٠٠

النحو الذى فعله أرسطو، الأمر الذى يقلل من قيمته العلمية فى هذا الجانب.

٣ - ويعالج أرسطو ولادة الحيوان وعملية السفاد وأنواع التوالد ووسائله فى المقاليتين الخامسة تركيب هذه الأعضاء ويشرحها تشرicha طبييا:

والسادسة (١)، ويتوقف عند الرجل والمرأة ليدرس مظاهر الطمث والحمل والولادة وأسباب العقم دراسة طبية دقيقة فى المقاليتين التاسعة والعاشرة (٢).

أما الجاحظ فإنه يتصدى لهذه الناحية، ويتكلم عنها بإسهاب عند مختلف الحيوانات، غير أنه لم يستطع أن يقدم معلومات تشريحية دقيقة بصدد المرأة والرجل كما فعل أرسطو.

٤ - ويتحدث أرسطو عن أثر البيئة فى الحيوانات من حيث ما تقدمه لها من غذاء ومناخ يؤثران فى نمائها واستقرارها وصحتها فى المقاليتين: السابعة والثامنة (٣). ويتطرق إلى أنواع طعام الحيوانات والأمراض التى تعزيبها وهجرتها.

(١) المصدر السابق، ص ٢٠١ - ٣٠١.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٧١ - ٥٠٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٠٣ - ٤٥٩.

أما الجاحظ فإنه يتناول الموضوع ذاته، غير أنه لا يركز على تغذية الحيوانات وأثر ذلك في صحتها والأمراض التي تعترئها، وإنما يهتم بتأثير البيئة في جسم الحيوانات وطبعها وسلوكها اهتماما بالغا، وهو يتفوق على أرسطو من هذه الناحية.

فالجاحظ يرى أن للبيئة أثرها الذي لا ينكر في اختلاف صور الحيوان وطبائعه وسلوكه وأخلاقه وألوانه "وقد رأينا اختلاف صور الحيوان، على قدر اختلاف طبائع الأماكن. وعلى قدر ذلك شاهدنا اللغات والأخلاق والشهوات (١). "قالوا: وإنما صارت ألوان سكان إقليم بابل السمرة، وهى أعدل الألوان، لأنهم لم يولدوا فى جبال ولا على سواحل بحار. فخرجت عقولهم الباطنة من الاعتدال والاستواء على حسب ألوانهم وشمائلم الظاهرة" (٢). "وقال الصنف الآخر: لا ننكر أن يفسد الهواء فى ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم ويفسد تربتهم، فيعمل ذلك فى طباعهم على الأيام، كما عمل

(١) الجاحظ: الحيوان، ج٣ ص ٢٩٤.

(٢) الجاحظ: البرصان والعرجان، ص ٤٨.

ذلك فى طباع الزنج، وطباع الصقالبة، وطباع بلاد
 يأجوج ومأجوج. وقد رأينا العرب وكانوا أعرابا
 حين نزلوا خراسان، كيف انسلخوا من جميع تلك
 المعانى، وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الإبل،
 والدواب وجميع ماشيتهم: من سبع وبهيمة، على
 طبائعهم. وترى جراد البقول والرياحين وديدانها
 خضرا، وتراها فى غير الغضرة على ذلك. وترى
 القملة فى رأس الشاب الأسود الشعر سوداء، وتراها
 فى رأس الشيخ الأبيض الشعر بيضاء... وقد نرى
 حرّة بنى سليم وما اشتملت عليه من إنسان وسبع
 وبهيمة وطائر وحشرة فتراها كلها سواداء (١) " وقد
 تحمر أو بار الإبل جدا على بعض المراعى...
 وتبيض الإبل ورءوسها ووجوهها من أكل
 الحمض " (٢) " وقد علمنا أن الطائر الصيد من
 الجوارح، لو أقام فى بلاده مائة عام لم يحدث
 لمنسره زوائد، وعير العانة إذا أقام فى غير بلاده
 احتاج إلى الأخذ من حافرة، وإلى أن يختلف به إلى

(١) الجاحظ: الحيوان ج٤، ص ٧٠ - ٧١.

(٢) الجاحظ: البرصان والعرجان، ص ٤٢ - ٤٣.

البيطار، والطائر الوحشى من هذه المغنيات والنوائح، لو أقام عندنا دهرًا طويلًا لم يصوت إذا أخذناه وقد كرز (سقط ريشه). وكذلك المزوجة والتعشيش والتفريخ" (١).

ويرى الجاحظ أن الروائح والعطور تشيب الشعر، وغسل الرأس بالسدر يرقه (٢).

٥ - وهناك ناحية مهمة لها طابع فلسفى قد خصص لها أرسطو قسما من كتابه (٣)، وذلك فى المقالات: الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة. هذه الناحية المهمة هى الغائية فى خلق الحيوان. حيث يعود مرة أخرى إلى أعضاء جسم الحيوان، عضوا عضوا، يبحث عن الغاية من تكوينها على الشكل الذى هى عليه. ويقول إن العلة المادية (الهولى) لا تكفى لتفسير الحياة، ويجب

(١) الجاحظ: الحيوان، ج٧، ص ١٠٠.

(٢) الجاحظ: البرصان والعرجان ص ٤٠ - ٤١.

(٣) أرسطو: أجزاء الحيوان، ترجمة يوحنا بن البطريق، تحقيق عبد الرحمن بدوى وكالة المطبوعات الكويتية، الطبعة الأولى ١٩٧٨ ويضم الكتاب المقالات ١١، ١٢، ١٣، ١٤.

البحث عن العلة الصورية التي يسميها النفس "وهو بين قولهم ليس بصواب، لأنه ينبغي أن يقال ويبين لماذا الحيوان، ومثل ماذا هو، ونصف كل واحد من الأعضاء كما نصف صورة السرير، وإن كان ذلك نفساً أو جزء نفس .."(١).

وأرسطو ينكر مذهب الصدفة، ويرى أن "من الناس من يزعم أن كل واحد من الحيوان يكون من قبل الطباع وأن كينونة السماء من ذاتها ومن البخت، وكذلك كان تقويمها. وليس يرى أن في السماء شيئاً من البخت ولا عدم الترتيب والقصد ونحن نقول في كل موضع يظهر فيه تمام يكون فيه غاية الحركة إليه إذا لم يكن له شيء مانع البتة"(٢). وقد عبّر أرسطو عن الغائية أحسن تعبير في حديثه عن اليد ودورها في حياة الإنسان "ولم يحتج الإنسان إلى مقادير الرجلين، بل هيأ له الطباع بدل الرجلين المقدمتين: عضدين ويدين. وقد قال أناسا غورس إنه لهذه العلة - أعنى أن للإنسان يدين - صار أعقل

(١) المصدر السابق ص ٤٦.

(٢) المصدر السابق ص ٤٧ - ٤٨.

وأحلم من جميع الحيوان. والأولى أن نقول إنه لكونه
أعقل الحيوان صارت له يدان، لأن اليدين أكثر من
الآلات، فأما الطباع فهو يبقى دائما على حاله" (١).

وبما أن علمنا بالجواهر السماوية يسير لعظم
شأنها، فإنه ينبغي أن ننظر في الكائنات التي بين
أيدينا "ويتبقى لنا أن لا نكره النظر في طباع الحيوان
الحقير الذي ليس بكريم، ولا يصعب ذلك علينا كما
يصعب على الصبيان. وفي جميع الأشياء الطباعية
شيء عجيب" (٢).

هذا هو حديث أرسطو عن الغائية في خلق
الحيوان، أما الجاحظ فهو يقول - أيضا - بالغائية في
الطبيعة مثل أرسطو، ويذهب إلى أن كل ما فيها من
كائنات تدل على وجود خالق مدبر حكيم. وما على
الإنسان إلا أن ينظر إلى هذه الحيوانات ليستدل من
عجيب تكوينها وغريب أحوالها على حكمة الله تعالى
ووجوده "ونبهنا تعالى وعز على هذه المناسبة وعلى
هذه المشاركة (بين الإنسان والحيوان)، وامتنح ما

(١) المصدر السابق ص ٢٠٧.

(٢) المصدر السابق ص ٦١ - ٦٢.

عندنا بتقديمها علينا فى بعض الأمور وتقديمنا عليها
فى أكثر الأمور، وأراد بذلك أن لا يخلينا من حجة
ومن النظر إلى عبرة وإلى ما يعود عند الفكر
موعظة.."(١).

بل إن الجاحظ يرى أن أحقر الحيوانات تقدم
أكبر الدلالة على الله تعالى وحكمته "ألا ترى بأن
الجبيل ليس بأدل على الله من الحصاة، وليس
الطاووس المستحسن بأدل على الله من الخنزير
المستقبح، وإن اختلفا فى جهة البرودة والسخونة
فإنهما لا يختلفان من جهة الدلالة والبرهان"(٢).

وبصفة عامة فإن الجاحظ يرى أن كل مافى
العالم يشتمل على الحكمة والغاية سواء كان عاقلاً أو
غير عاقل وسواء كان جماداً أو نامياً "ووجدنا كون
العالم بما فيه حكمة، ووجدنا الحكمة على ضربين:
شيء جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة
الحكمة، وشيء جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة
الحكمة. فاستوى بذلك الشيء العاقل وغير العاقل فى

(١) الجاحظ: الحيوان ج٧ ص ١٠.

(٢) المصدر السابق ج١ ص ٢٠٣، ٢٠٦.

جهة الدلالة على أنه حكمة؛ واختلفا من جهة أن أحدهما دليل لا يستدل، والآخر دليل يستدل، فكل مستدل دليل وليس كل دليل مستدلا، فشارك كل حيوان سوى الإنسان جميع الجماد في الدلالة، وعدم الاستدلال، واجتمع للإنسان أن كان دليلا مستدلا. ثم جعل للمستدل سبب يدل به على وجوه استدلاله، ووجوه مانتج له الاستدلال، وسموا ذلك بيانا. وجعل البيان على أربعة أقسام: لفظ، وخط، وعقد (نوع من الحساب يكون بأصابع اليدين يقال له: حساب اليد)، وإشارة، وجعل بيان الدليل الذى لا يستدل تمكنه المستدل من نفسه، واقتياده كل من فكر فيه إلى معرفة ما استخزن من البرهان، وحشى من الدلالة، وأودع من عجيب الحكمة. فالأجسام الخرس الصامته ناطقة من جهة الدلالة، ومغربة من جهة صحة الشهادة على أن الذى فيها من التدبير والحكمة مخبر لمن استخبره، وناطق لمن استنطقه، كما خبر الهزال وكسوف اللون عن سوء الحال، وكما ينطق السم من حُسن النضرة عن حسن الحال..

وقال الفضل بن عيسى بن أبان فى قصصه:
سل الأرض، فقل: من شق أنهارك، وغرس

أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حواراً، أجابك اعتباراً.

فموضوع الجسم ونصبتة، دليل على ما فيه وداعية إليه ومنبهة عليه فالجماد الأبكم الأخرس من هذا الوجه، قد شارك في البيان الإنسان الحي الناطق. فمن جعل أقسام البيان خمسة، فقد ذهب أيضاً مذهبا له جواز في اللغة، وشاهد في العقل فهذا أحد قسبي الحكمة، وأحد معنيي ما استخزنها الله تعالى من الوديعه.

والقسمة الأخرى ما أودع صدور صنوف سائر الحيوان، من ضروب المعارف، وفطرها عليه من غريب الهدايات، وسخر حنا جرهما له من ضروب النغم الموزونة، والأصوات الملحنة، والمخارج الشجية، والأغاني المطربة، فقد يقال إن جميع أصواتها معدلة وموزونة وموقعة، ثم الذي سهل لها من الرفق العجيب في الصنعة، مما ذلله الله تعالى لمناقيرها وأكفها، وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هيأ لها من الآلة، وكيف أعطى كثيرا منها من الحسن اللطيف، والصنعة البديعة، من غير تأديب وتنقيف ومن غير تقويم وتلقين، ومن

غير تدريج وتمرين، فبلغت بعفوها وبمقدار قوى
فطرتها، من البديهة والارتجال، ومن الابتداء
والاقتضاب، ما لا يقدر عليه خُذّاق رجال الرأى،
وفلاسفة علماء البشر، بيد ولا آلة. بل لا يبلغ ذلك
من الناس أكملهم خصالاً وأتمهم خللاً، لا من جهة
الاقتضاب والارتجال، ولا من جهة التعسف
والاقتدار، ولا من جهة التقدم فيه، والتأني فيه،
والتأني له، والترتيب لمقدماته، وتمكن الأسباب
المعينة عليه. فصار جهد الإنسان الثاقب الحسّ،
الجامع القوى، المتصرف فى الوجوه، المتقدم فى
الأمر، يعجز عن عفو كثير منها، وهو ينظر إلى
ضروب ما يجئ منها، كما أعطيت العنكبوت ..
وكما علّم النحل .. فى غير ذلك من أصناف الخلق.
ثم لم يوجب لهم العجز فى أنفسهم فى أكثر ذلك، إلا
بما قوى عليه الهمج والخشاش وصغار الحشرات،
ثم جعل الإنسان ذا العقل والتمكين والاستطاعة
والتصريف، وذا التكلف والتجربة، وذا التأني
والمنافسة، وصاحب الفهم والمسابقة، والمتبصر شأن
العاقبة، متى أحسن شيئاً كان كل شيء دونه فى
الغموض عليه أسهل، وجعل سائر الحيوان، وإن كان

يحسن أحدها ما لا يحسن أحق الناس متى أحسن شيئاً عجيباً لم يمكنه أن يحسن ما هو أقرب منه في الظن، وأسهل منه في الرأي، بل لا يحسن ما هو أقرب منه في الحقيقة، فلا الإنسان جعل نفسه كذلك، ولا شيء من الحيوان اختار ذلك، فأحسننت هذه الأجناس بلا تعلم، ما يمتع على الإنسان وإن تعلم، فصار لا يحاوله إذ كان لا يطمع فيه، ولا يحسدها إذ لا يؤمل اللحاق بها.

ثم جعل تعالى وعز هاتين الحكمتين بإزاء عيون الناظرين، وتجاه أسماع المعبرين، ثم حث على التفكير والاعتبار، وعلى الاتعاظ والازدجار، وعلى التعرف والتبيين، وعلى التوقف والتذكر، فجعلها مذكرة منبهة، وجعل الفطر تتبش الخواطر وتجول بأهلها في المذاهب. ذلك الله رب العالمين فتبارك الله أحسن الخالقين" (١).

فكل ما في السموات والأرض دال على الخالق ومقر ربوبيته وتوحيده: "وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق،

(١) الجاحظ: الحيوان جـ ١ ص ٣٣ - ٣٦.

وجامد ونام، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص. فالدلالة
التي في الموات الجامد، كالدلالة التي في الحيوان
الناطق. فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء
معربة من جهة البرهان ... وقال بعض الخطباء:
أشهد أن السموات والأرض آيات دالات وشواهد
قائمت، كل يؤدي عنك الحجة ويشهد لك بالربوبية،
موسومة بآثار قدرتك، ومعالم تدبيرك التي تجليت بها
لخلقك، فأوصلت إلى القلوب من معرفتك ما أنسها
من وحشة الفكر، ورجم الظنون. فهي على اعترافها
لك، وافتقارها إليك شاهدة بأنك لا تحيط بك الصفات،
ولا تحلك الأوهام؛ وأن حظ الفكر فيك، الاعتراف
لك^(١).

إن الجاحظ — خلافا لأرسطو — يتوسع في
الحديث عن الغائية والحكمة في كل مخلوقات الكون؛
وقد أوردنا هذين النصين الأخيرين — على طولهما —
لنثبت بما لا يدع مجالا للشك أن هناك فرقا كبيرا بين
غائية أرسطو وغائية الجاحظ، فغائية أرسطو غائية
طبيعية، بينما نجد غائية الجاحظ غائية دينية تتطلق

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٨١.

من إيمانه بالوحي وبالدين المنزل من عند الله سبحانه وتعالى، فشتان ما بين الغائيتين.

أما فيما عدا ذلك فإنه يمكن القول بأن أرسطو كان أكثر منهجية علمية من الجاحظ، حيث قسم أرسطو كتابه إلى مقالات، تدور كل مقالة حول ناحية من نواحي الحيوان؛ فمقالة تبحث في أعضاء الجسم، وثانية في تناسل الحيوانات، وثالثة في غذائها، إلى غير ذلك. أما الجاحظ فلم يفعل ذلك، فقد بدأ كتابه بسرد أسماء كتبه، ثم تحدث عن أقسام الكائنات فوسائل البيان، وبعد ذلك راح يتكلم عن مقارنة بين الكلب والديك بشكل مناظرة بين متكلمي يتخللها استطراد في الخصاء، وانتقل بعدها إلى الكلام عن سائر الحيوانات تباعا من حمام وذبان وجعلان وهدهد ورخم وخفاش ونمل وقرد وخنزير وحيات وظليم، إلى غير ذلك من الأصناف والمعارف المختلفة.

وبعد هذه المقارنة بين كتابي أرسطو والجاحظ في الحيوان نود أن نوضح موقف الجاحظ من أرسطو حتى نتبين مدى أصالة الأول.

هـ - موقف الجاحظ من أرسطو:

يتضح من المقارنة بين وصف بعض الحيوانات عند كل من أرسطو والجاحظ، ومن المقارنة بين كتابيهما أن الجاحظ قد جعل من كتاب أرسطو في الحيوان مصدراً من مصادر بحثه، وأنه رجع إليه واستشهد به أكثر من ستين مرة.

والجاحظ يورد أقوال أرسطو ويعرضها بأمانة، وبالصورة التي وردت عليها في الترجمة التي اضطلع بها ابن البطريق وانتهت إلينا. ومن هنا يخطئ من يقول إن مانسبه الجاحظ لأرسطو إما أن يكون رآه في كتب منحولة للفيلسوف أرسطو وإما أن يكون ألفها من عنده (١).

وبعد أن يورد الجاحظ أقوال أرسطو يعلن موقفه منها، فإما أن يقبلها وفي هذه الحال لا يعلق عليها فيكون قبوله بها ضمناً، وإما أن يشك فيها فيتوقف عن الحكم عليها، فهو يورد - مثلاً - خبر الحية الصغيرة الشديدة اللدغ في بلدة "طباقون" والتي لا يمكن الشفاء منها إلا إذا عولج الملدوغ بحجر

(١) هو فؤاد أفرام البستاني، انظر مجلة المشرق، المجلد ٢٦ ص ٦٦٦.

يخرج من قبور قدماء الملوك، ثم يقول معقبا عليه:
 "ولم أفهم هذا، ولم كان ذلك" (١). وهذا الخبر ورد
 في كتاب أرسطو على النحو التالي: "ويكون أيضا
 في النبات الذى يسمى باليونانية صلفيون حية
 صغيرة رديئة السع جدا ويزعمون أن تلك اللسعة
 تعالج بحجر يؤخذ من قبر الملوك، وذلك الحجر ينقع
 بشراب ويشرب ذلك الشراب" (٢).

وإما أن يرفضها الجاحظ وينتقدها؛ فهو يقول
 — مثلا — فى كتاب الحيوان: "وقد ذكر أرسطو
 طاليس فى كتاب الحيوان أنه قد ظهر ثور وثب بعد
 أن خصى فنزا على بقرة فأحبها ولم يحك هذا عن
 معاينة، والصدور تضيق بالرد على أصحاب النظر
 وتضيق بتصديق هذا الشكل" (٣). وقد ورد هذا الخبر
 فى كتاب أرسطو على الشكل التالى: "وقد عرض
 لثور من الثيران أنه خصى ثم سجد من ساعته
 وعلقت منه الأنثى، فهذه صفة خصى الحيوان

(١) الجاحظ: الحيوان ج٤ ص ٢٢٧.

(٢) أرسطو: طباع الحيوان ص ٣٦٨.

(٣) الجاحظ: الحيوان ج٥ ص ٥٠٢.

وخلقها واختلافها" (١). وينكر الجاحظ - أيضا - كون السمكة لا تتبلع شيئا إلا مع الماء فيقول: "قال صاحب المنطق إن الضفادع لا تنق حتى تدخل فكها الأسفل في الماء ... أما قوله إن السمكة لا تتبلع شيئا من الطعم إلا ببعض الماء فأى عيان دل على هذا؟ وهو عسر" (٢).

وقد لا يكتفى الجاحظ بإيداء شكه فيما يقوله أرسطو وإنما يسخر منه سخرية لاذعة؛ فمن هذا قوله: "وقد أكثر في هذا الباب أرسطو طاليس، ولم أجد في كتابه على ذلك من الشاهد إلا دعواه. ولقد قلت لرجل من البحريين: زعم أرسطوطاليس أن السمكة لا تتبلع الطعم أبدا إلا ومعه شيء من ماء، مع سعة المدخل وشره النفس. فكان جوابه أن قال لى: ما يعلم هذا إلا من كان سمكة مرة أو أخبرته به سمكة، أو حدثه بذلك الحواريون أصحاب عيسى فإنهم كانوا صيادين وكانوا تلامذة المسيح" (٣).

(١) أرسطو: طباع الحيوان ص ٩٩.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج ٥ ص ٥٤١.

(٣) الجاحظ: الحيوان ج ٦ ص ١٧.

ويقرأ الجاحظ في حيوان أرسطو خبرا غريبا مفاده أنه "قد ظهرت حية لها رأسان" (١). لم يقتنع الجاحظ بالأسباب التي ساقها أرسطو تعليلا لوجود تلك الحية العجيبة ذات الرأسين، إذا لا يعتقد أن الظواهر الطبيعية تخضع للتعليلات، أو ينفع في إثباتها أو نفيها البرهان المنطقي، ويذهب إلى أن العيان هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن الركون إليها في الطبيعيات. وبناء على هذا يشك في خبر أرسطو ويروح يسأل الناس عما إذا كان أحدهم قد رأى حية ذات رأسين، فيجيبه أعرابي أن خبر مثل تلك الحية حق. ولكن الجاحظ يعد كلام الأعرابي متناقضا وكاذبا. ونحن نروى الخبر كما ورد عند الجاحظ لنبيين الفرق بين منهجه ومنهج أرسطو؛ يقول الجاحظ: "وزعم صاحب المنطق أنه قد ظهرت حية لها رأسان، فسألت أعرابيا عن ذلك فزعم أن ذلك حق، فقلت له: فمن أي جهة الرأسين تسعى، ومن

(١) أرسطو: كون الحيوان، ترجمة يحيى بن البطريق، تحقيق بان بروخمان، ليدن، ١٩٧١، ص ١٥١ ويضم الكتاب المقالات الخمس الأخيرة.

أيهما تأكل وتعوض؟ فقال: أما السعى فلا تسعى، ولكنها تسعى لحاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل. وأما الأكل فإنها تتعشى بقم وتتغذى بقم. وأما العض فإنها تعض برأسها معا، فإذا به أكذب البرية. وهذه الأحاديث كلها مما يزيد في الرعب منها وفي تهويل أمرها" (١).

هذا هو موقف الجاحظ من أرسطو؛ إنه يعتمد عليه ويجعله مصدرا من مصادر معلوماته ولكنه لم يعتمد عليه كليا بل فتش عن مصادر أخرى استقى منها والتي تحدثنا عنها في مصادر ثقافة الجاحظ في علم الحيوان. وقد امتحن مدى صحة معلومات الفيلسوف اليوناني التي تبقى موضع شك لديه حتى يؤيدها العيان والتجربة أو السماع الصادق أو الشعر الموثوق؛ فللاجاحظ ثقة تامة في الشعر العربي، فهو يصدره في الرد على أرسطو ويحتج به عليه. فقد قال بعد أن سرد قول أرسطو في عقوق العقاب وجفائها لأولادها، فأما أشعار العرب فهي تدل على خلاف ذلك، قال دريد بن الصمة:

(١) الجاحظ: الحيوان ج٤ ص ١٥٦ .

وكل لجوج فى العناق كأنها
إذا اغتمست فى الماء فتخاء كاسر
لها ناهض فى الوكر قد مهدت له
كما مهّدت للبعل حسناء عاقر (١).

وهكذا يتضح لنا أن الجاحظ قد عارض
أرسطو ورد عليه فى كتاب الحيوان، فتناول
الموضوع ذاته ولكن بذهنية مختلفة ومنهج مغاير.
فهو لم يدرس من الحيوان سوى طباعه، وأهم
خصائصه الجسمية الخارجية والداخلية. وهو لم
يقتصر كأرسطو على التجربة والعيان كمصدر من
مصادره، وإنما اعتمد أيضا وبشكل واسع على
السماع والشعر والقرآن والأحاديث ومؤلفات
القدماء. وهو لم يتبع منهاجا واحدا فى كتابه ولهذا
وجد كثيرا من الاستطراد عنده، ولم تكن ثقته
بأرسطو أشد من ثقته فى شاعر أو أعرابى. ولهذا
ليس فى كتابه إلا أثر ضئيل من آثار حيوان أرسطو،
علم الرغم مما نقله عنه (٢). وقد أخطأ البغدادى فى

(١) الجاحظ: الحيوان ج٧ ص ٣٧.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج٦ ص ٢٣٦.

قوله بأن الجاحظ "سلخ معانى كتاب الحيوان
لأرسطاطاليس، وضم إليه ما ذكره المدائني من حكم
العرب وأشعارها فى منافع الحيوان" (١). ليتهمه
بالنقل، ولينفى عنده الجدة والمنهج الإبداعي.
هذا هو موقف الجاحظ من أرسطو وهو
موقف أصيل يدل على أصالة المفكر المسلم تجاه
الثقافات الأخرى، ولاسيما إذا كانت هذه الثقافة مثل
الثقافة اليونانية.

(١) عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق دار الأفاق بيروت ١٩٧٣
ص ١٦٢.

الفصل الخامس

الجاحظ والعلم الحديث

أ - سيكولوجية الحيوان عند الجاحظ:

لقد كان للجاحظ فضل السبق في مجال دراسة سلوك الحيوان والطرق العلمية التي اختطها في بحوثه في هذا المجال. يحدثنا الدكتور أحمد أمين عن هذا فيقول: "إن الجاحظ سبق إلى اتجاهات قيمة فيما يسمى بسيكولوجية الحيوان؛ فهو يراقب نداء الديك؛ بالليل، ويبحث هل إذا كان في قرية وحده يصيح أولا. ويراقب الدجاج هل يكثر فراخها إذا كثر عديدها أو تقل؟ ويلاحظ الكلب ملاحظة دقيقة ليعلم مقدار ذكائه ووجوه تنبهه والفروق الدقيقة بين أصنافها، إلى كثير من أمثال ذلك" (١).

والواقع أن علم نفس الحيوان، علم جديد، غير أن كتاب الحيوان الذي ألفه الجاحظ في القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي قد تضمن ملاحظات كثيرة يمكن عدها بذورا وأصولا لهذا العلم الحديث.

فقد أقر الجاحظ مبدأ أساسيا هو أن الغريزة هي التي تسيطر على سلوك الحيوان وتسيره، وهي

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، الطبعة السادسة، القاهرة ١٩٦١ ج١

طبع فطر عليه، تعمل بمنتهى الدقة، وتقوم فى الحيوان مقام العقل فى الإنسان. ومثلما أن العقل يرشد الإنسان إلى ما فيه خيره وصلاحه، فيدله على الطريق المستقيمة التى ينبغى سلوكها، فكذلك الغريزة ترشد الحيوان إلى ما يحقق منفعة وسلامته "وإن كان الإنسان يبلغ بالروية والتصفح والتحصيل والتمثيل ما لا يبلغه شئ من السباع والبهائم، فإن لها أمورا تدركها وصفة تحذقها تبلغ منها بالطبائع سهوا وهويا ما لا يبلغ الإنسان فى ما هو بسبيله إلا أن يكره نفسه على التفكير وعلى إدامة التفكير والتكشيف والمقاييس.." (١).

وكما يختلف الناس فى سلوكهم وأخلاقهم، فكذلك الحيوانات تختلف فى طباعها. "فبعضها يعرف بالمكر والحيل والكيس والروغان، وبالفتنة والخديعة والرفق والتكسب والعلم بما يعيشه والحذر مما يعطاه وتأتيه لذلك وحذقه" (٢) وبعضها الآخر "يعرف بالثقافة .. والصبر على المطاولة والعزم والروغان

(١) الجاحظ: الحيوان ج١ ص ١٧، ٣٥ - ٣٦.

(٢) المصدر السابق ج١ ص ١٨.

والمكر والجولان، ووضع تلك التدابير فى مواضعها حتى لا ترى له طعنة ولا تخطئ له وثبة" (١). وبعضها "يعرف بالنظر فى القيافة، وبإحكام شأن المعيشة، والأخذ لنفسه بالنقّة وبالتقدم فى حال المهلة والادخار ليوم الحاجة" (٢).

ويرى الجاحظ أنه على الرغم من سيطرة الغريزة على سلوك الحيوانات وطباعها فإنها قابلة للتعلم كالإنسان. مثال ذلك الحمام الذى يتميز بمقدرة على الاستدلال والحفظ والألفة للأوطان ويستخدم فى البريد "والدليل على أنه يستدل بالعقل والمعرفة والفكر والعناية أنه إنما يجيء على الغاية على تدريج وتدريب وتنزيل .." (٣).

وعند الجاحظ معظم الحيوانات - عدا الخنزير والذئب - تقبل التربية والتأديب؛ فالخنزير "يكون أهليا ووحشيا كالحمير والسنانير مما يعاشر الناس. وكلها لا تقبل الآداب. وإن الفهود وهى وحشية تقبل كلها، كما تقبل البوازى والشواهين والصقورة الزرق

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ١٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٢١٥.

والبؤبؤ والعقاب وعتاق الأرض وجميع الجوارح
والوحشيات" (١).

وقد لاحظ الجاحظ أن صغار الحيوان أسهل
في التأديب والترويض من كبارها "لأن الصغير إذا
أدب فبلغ، خرج جباناً مواكلاً، والمسن الوحشى
يخلص لك كله حتى يصير أصيد وأنفع، وصغار
السبع والطير وكبارها على خلاف ذلك؛ وإن كان
الجميع يقبل الآداب" (٢). وأقدر الحيوانات على التعلم
أربعة هي الدب والقرد والفيل والكلب (٣).

وينتهى الجاحظ إلى نظرية مهمة، وهى أن
الحيوانات تملك قدراً من الذكاء إلى جانب الغريزة،
وهو قدر يتفاوت بين حيوان وآخر. فالحيات مثلاً
تحتال بضروب من الحيل لصيد فريستها؛ فبعضها
ينتصب فى الرمال عند الهاجرة كالعود، فيأتى الطير
فيخدع بمنظرها الذى يشبه العود ويجثم عليها فتقبض
عليه وتبتلعه (٤). وبذهب الجاحظ إلى ما هو أبعد من

(١) المصدر السابق ج٤ ص ٤٧.

(٢) المصدر السابق ج٤ ص ٤٧ - ٤٨.

(٣) المصدر السابق ج٦ ص ٣١٦.

(٤) المصدر السابق ج٤ ص ٩٩.

هذه الغاية حيث يرى أن للحيوانات لغة بها تتفاهم، وإن كانت هذه اللغة تختلف عن لغة البشر.

يقول الجاحظ: "إن للطير منطوقا تتفاهم به حاجات بعضها البعض، ولا حاجة إلى أن يكون لها في منطوقها فضل لا تحتاج إلى استعماله، وكذلك معانيها في مقادير حاجاتها" (١). ومن الأمثلة على ذلك ما يحدث للنمل، إذ نرى الذرة عند ما تعجز عن جر جسم أكبر منها كالجرادة تذهب إلى رفيقاتها وتدعوهم إلى موازرتها، وبعد قليل نراها قد عادت برفقتهن ويتعاون على جرها الجرادة. ويلاحظ أن عند السناير خمسة أصوات يدل كل منها على حاجة؛ فصوت يدل على الضرب، وصوت يدل على الدعاء للطعام، وصوت يدل على الجوع، وصوت يدل على استدعاء أخواتها إليها، وصوت يدل على العراك والمشاجرة (٢).

كما يرى الجاحظ أن بعض الحيوانات تفهم لغة البشر عندما يكلمونها، ولا سيما تلك الحيوانات

(١) الجاحظ: الحيوان ج٧ ص ٥٦.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج٤ ص ٢٢، ٢٣، ج٥ ص ٢٨٩.

الآليفة التى تعيش معهم "والناس قد يكلمون الطير والبهائم والكلاب والسنائير والمراكب وكل ما كان تحتهم من أصناف الحيوان التى قد خولوها وسخرت لهم. أو ربما رأيت القرد يكلم القرد بكل ضرب من الكلام ويطيعه القرد فى كل ذلك. وكذلك ربما رأيته يلقي الببغاء ضروبا من الكلام والببغاء يحكيه. وإن فى غراب البين لعجبا، وكذلك كلامهم للبدب والكلب والشاة المكية، وهذه الأصناف التى تلقن وتحكى" (١).

وقد سبق الجاحظ العالم "بافلوف" صاحب نظرية الارتباط أو الانعكاس الشرطى فى التنبيه إلى الظاهرة التى بنى عليها هذا العالم نظريته؛ فالجاحظ يقول: "وقد حدثنى صديق لى أنه حبس كلبه فى بيت وأغلق دونه الباب فى الوقت الذى كان طبأخه يرجع فيه من السوق ومعه اللحم، ثم أحد سكينا بسكين فنبج الكلب ورام فتح الباب لتوهمه أن الطباخ قد رجع من السوق .. وهو يحد السكين ليقطع اللحم" (٢). غير أن الجاحظ لم يتوسع فى هذه الظاهرة ولم يستغلها الاستغلال الأمثل.

(١) المصدر السابق ج٧ ص ٢١٨.

(٢) المصدر السابق ج٢ ص ١٢٠.

كما تنبه الجاحظ إلى ظاهرة نفسية توجد لدى الحيوان هي ظاهرة الحس بالزمن. وقد تظهر على نحو مرهف عند بعض الحيوانات كالديك مثلاً. فالديك يطلق صياحا في أوقات معينة من الليل يراعى فيها الدقة بحيث يمكننا أن نعرف كم مضى من الليل وكم بقى منه. ويقسم صيحاته على مدى الليل سواء طال أو قصر حتى إنه ليشبه الاسطرلاب (١). والأطراف من ملاحظة الجاحظ لهذه الظاهرة هو تساؤله عن علتها: فهل يصيح الديك لأنه ينكر شيئاً يقترب منه كما يفعل الكلب؟ أو أنه يصيح لأنه يسمع صوتاً شأنه شأن الكلب أيضاً؟ جواب الجاحظ هو أنه يصيح (لشيء) فى طبعه. إذا قابل ذلك الوقت فى الليل هيجه، فعدد أصواته فى الوقت الذى يظن أنه تتجاوب فيه الديكة كعدد أصواته فى القرية وليس فى القرية ديك غيره" (٢) يصيح.

هذه هي ملاحظات الجاحظ فيما يتصل بعلم نفس الحيوان، وهو علم من مستحدثات علوم

(١) الجاحظ: الحيوان ج٢ ص ٢٤١.

(٢) المصدر السابق ج٢ ص ٢٥٢.

العصر، ولم يسبق إليه غير الجاحظ فيما نعلم. الأمر الذى يدل على عبقرية هذا الرجل وقوة إبداعه فى مجالات كثيرة والتي منها علم نفس الحيوان. وهناك جانب آخر ينبغى لنا أن نناقشه لدى الجاحظ وهو أمر يتعلق بالكائنات الحية، وهو نظرية التطور العضوى والتي هى أيضا من النظريات الحديثة، فهى وليدة القرن التاسع عشر الميلادى، أى أن بينها وبين الجاحظ أكثر من عشرة قرون، مادام الجاحظ قد أظهر لنا ريادته فى علم الحيوان على النحو الذى سقناه سابقا.

ب - الجاحظ ونظرية التطور العضوى:

نظرية التطور العضوى من النظريات العلمية الحديثة، فهى بنت القرن التاسع عشر الميلادى. والتطور العضوى يعنى الاعتقاد بأن الحيوانات والنباتات تكونت من أشكال سبقتها نتيجة تحول تدريجى مستمر (١)، أو القول بأن جميع الكائنات الحية التى تعيش على الأرض قد نشأت من أصل واحد أو بضعة أصول، وأن التغيرات المختلفة التى

(١) الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال، القاهرة ص ٥٢٩.

حدثت لها قد جعلتها تتحول من كائنات بسيطة التركيب إلى أخرى أكثر تعقيداً (١) .
وهناك ثلاث نظريات تفسر التطور في العصر الحديث هي :

١- نظرية لامارك (١٧٤٤-١٨٢٩م) عن توارث الصفات المكتسبة Lamarks Theory of the Inheritance Aquired Charactrestics التي طرحها في كتابه فلسفة علم الحيوان .

٢- نظرية دارون عن الانتخاب الطبيعي Durwins Theory of Natural Selection والتي وضعها في كتابيه "أصل الأنواع" (١٨٥٩) و "تحرر الإنسان" الذي نشره (١٨٧١) .

٣- النظرية التركيبية الحديثة Modern Synthetic Theory وهي ليست من وضع عالم واحد وإنما هي من وضع مجموعة من العلماء بعد دارون .

(١) فاطمة محجوب ، دائرة معارف الشباب ، الطبعة الأولى ،
القاهرة ص ٥٢٩

وأى نظرية شاملة للتطور يجب أن تأخذ فى الاعتبار العوامل الداخلية Internal factors والعوامل الخارجية External Factors وتشمل العوامل الداخلية التوارث والاختلاف والتكاثر والتكوين، أما العوامل الخارجية فهي جميع الظروف البيئية التى تؤثر فى الأفراد والجماعات (١).

على أية حال تتسبب نظرية التطور إلى "تشارلز دارون" وكتابه "أصل الأنواع"، وهو يلخص نظريته قائلا: "لا يمر بى خلجة شك فى أن ما كنت أقطع به كما قطع الطبيعويون من القول بأن كل نوع من الأنواع قد خلق مستقلا بذاته، خطأ محض. وإنى لعلى تمام الاعتقاد بأن الأنواع دائمة التحول، وأن الأنواع التى تلحق بما نسميه الأجناس اصطلاحاً، هي أعقاب متسلسلة عن أنواع طواها الانقراض، على نفس الطريقة التى تعتبر بها الضروب لأى نوع أعقاباً متسلسلة عن ذلك النوع ذاته. وإنى فوق ذلك لشديداً الاقتناع بأن الانتخاب

(١) د/محفوظ عزام: نظرية التطور عند مفكرى الإسلام، دار الهداية القاهرة سنة ١٩٨٦ ص ١٩٥.

الطبيعى هو السبب الأكبر والمهيئ الأقوى لحدوث التحولات، ولو لم يكن السبب الأوحد الذى انفرد بإبرازها إلى عالم الوجود" (١).

ثم قال فى كتابه "تحدث الإنسان" أو "أصل الإنسان والانتخاب بالنسبة للجنس" إن الإنسان متطور عن نوع سابق له.

أما فيما يتعلق بالجاحظ فإننا يمكننا القول بأن الجاحظ لم يستعمل كلمة التطور، وإنما استعمل ألفاظا كالقلب والنقل والمسوخ، قاصدا بها تغير الكائن من حال إلى حال أخرى. الأمر الذى يشم منه رائحة القول بالتطور العضوى. يؤيد هذا ما نجده عنده من فلسفة التصنيف؛ ومن الحديث عن تأثير البيئة والوراثة، والقول بالتهجين؛ بالإضافة إلى حديثه عن أصل بعض الحيوانات.

لقد فكر الجاحظ فى أصل الحياة، وقال بنظرية التولد الذاتى أو التلقائى، ومعناه أن بعض الحيوانات تتولد من مادة ليس فيها حياة، وذلك لما

(١) تشارلز دارون: أصل الأنواع، ترجمة إسماعيل مظهر، مكتبة النهضة بيروت - وبغداد، سنة ١٩٧٣ ص ١٢٢.

يلاحظه الناس من ظهور بعض الحيوانات فجأة،
 كخروج الضفدع من الطين "وتلك الضفادع إنما هي
 شيء يخلق تلك الساعة من طباع الماء والهواء
 والزمان وتلك التربة على مقادير ومقابلات" (١).

وهذا التولد كان يسمى عند فلاسفة العصر
 الوسيط بالتولد المشكك. ويضيف بعض الباحثين إلى
 التولد الذاتى مبدأ العلية وينسبه إلى أرسطو
 والفلاسفة الإسلاميين.

وكان لرأى الجاحظ فى أصل الحياة أثره فيمن
 جاء بعده من المفكرين والفلاسفة المسلمين كالفارابى
 وابن سينا وإخوان الصفا وابن طفيل. فقد فتح باب
 البحث لهم عن أصل الحياة. ويفترض العلماء
 المعاصرون أن الكائنات الحية على وجه الأرض قد
 تولدت فى البدء من جزئيات عضوية تجمعت فى
 الماء والطين لتكون أبسط الكائنات الحية (٢).

والحق أن بعض المعتزلة قد أسرف فى القول
 بالطبائع وأثرها فى الخلق إسرافا هو أشبه بأن يكون

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ١٥٦.

(٢) د/أنور عبد العليم: قصة التطور، القاهرة ص ٥٩ وما بعدها.

مجاراة للدهريين فى فلسفتهم، واتباعا لمذهبهم،
واللجاحظ كثير من ذلك يدل على متابعة المعتزلة
سبيل الدهريين، أو على أنهم - على الأقل - كانوا لا
يتأثمون من ذلك فهو يقول مثلاً: "وقد أنكر ناس من
العوام وأشباه العوام أن يكون شيء من الخلق كان
من غير ذكر أو أنثى. وهذا جهل بشأن العالم،
وبأقسام الحيوان. وهم يظنون أن على الدين من
الإقرار بهذا القول مضرة. وليس الأمر كما قالوا.
وكل قول يكذبه العيان، فهو أفحش خطأ وأسخف
مذهباً وأدل على معاندة شديدة أو غفلة مفرطة وإن
ذهب الذهاب إلى أن يقيس ذلك على مجاز ظاهر
الرأى دون القطع على غيب حقائق العلل، فأجراه
فى كل شيء، قال قولاً يدفعه العيان أيضاً. مع إنكار
الدين له. وقد علمنا أن الإنسان يأكل الطعام ويشرب
الشراب وليس فيهما حية ولا دودة فيخلق منهما فى
جوفه ألوان من الحياة وأشكال من الديدان من غير
ذكر وأنثى. ولكن لا بد لذلك الولاد واللقاح من أن
يكون عن تناكح طباع، وملاقة أشياء تشبه بطباعها
الأرحام، وأشياء تشبه فى طبائعها ملقحات

الأرحام" (١).

ومهما يكن من خطأ هذا القول في نظر العلم الحديث الذى يثبت أن الحى لا يأتى إلا من حى كما يقول "باستير"، فإن الذى يعنينا هو دلالاته على أن بعض المعتزلة - والجاحظ منهم - كانوا يذهبون إلى أن خصائص المادة كافية فى إيجاد الكائن الحى، وأن وجود هذا الكائن ليس إلا نتيجة اجتماع هذه الخصائص والقوى. وما أشبه هذا بمذهب الفلاسفة الدهريين أو الطبيعيين!

أما فيما يتعلق بفلسفة التصنيف عند الجاحظ فإننا نجده يقسم الكائنات الحية إلى أنواع ورتب، وقد يوحى الترتيب والتقسيم بأن هذه الكائنات قد نشأت بواسطة التحور والتحول، كل من المرتبة التى تسبقه، ولكننا فى الواقع لا نستطيع أن نجزم بأن الجاحظ يقول بتحول الكائنات بالمعنى الذى ذهب إليه دارون بعد نحو عشرة قرون. وكل ما نستطيعه هو أن نقول إن التطور عند الجاحظ نوع من الترتيب والتقسيم والتصنيف يعتمد على أفضلية الكائنات

(١) الجاحظ: الحيوان ج٣ ص ٣٦١ - ٣٦٢.

وشرفها دون أن نذهب إلى القول بأنه "دارونى" فعلا.

فالجاحظ يقسم الكائنات النامية إلى حيوان ونبات؛ ويقسم الحيوان إلى ثدييات وطيور وأسماك وزواحف؛ ويقسم الثدييات إلى إنسان وبهائم وسباع وحشرات (١).

ثم يقسم الطير إلى ثلاثة أنواع؛ وكل نوع ينقسم إلى أنواع، وهناك من الطير ما هو مشترك بين نوعين. كما أن هناك من الحيوانات ما هو مشترك أيضا بين نوعين (٢).

وهو يقسم الحيوانات باعتبارات مختلفة، فيقسمه إلى فصيح وأعجم (٣). والفصيح هو الإنسان. وقد كان للجاحظ أثره فيمن جاء بعده، كإخوان الصفا وغيرهم. حيث يقسم إخوان الصفا الحيوان إلى نتاج وتكوين (٤)، والنتاج من مماسة الأجسام بعضها ببعض، والتكوين من امتزاج الطبائع بعضها ببعض. وهناك تقسيم آخر للحيوان عندهم،

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ١ ص ٢٧.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٢٨ - ٣١.

(٣) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٢.

(٤) إخوان الصفا: رسائل، طبعة سنة ١٣٠٥ هـ، مجلد ٢، ص ٣٧٦.

حيث تنقسم إلى: تامة كاملة، وهى كل حيوان ينزو ويحبل ويرضع ويربى الأولاد، وناقصة وهى كل حيوان يسفد ويبيض ويفرخ، ومتولدة من العفونات، وهى كل حيوان لا يسفد ولا يبيض ولا يلد ولا يعيش سنة كاملة (١).

كما أنهم يرون أن الحيوانات الناقصة الخلقة متقدمة الوجود على التامة الخلقة بالزمان فى بدء الخلق، وذلك أنها تتكون فى زمان قصير، والتي هى التامة الخلقة تتكون فى زمان طويل (٢). وحيوان الماء وجوده قبل حيوان البر بزمان، لأن الماء قبل التراب والبحر قبل البر فى بدء الخلق، والحيوانات كلها متقدمة الوجود على الانسان بالزمان، لأنها لأجله، وكل شيء هو من أجل شيء آخر فهو متقدم الوجود عليه (٣).

ولقد عقد الجاحظ مقارنات عديدة تبين المشابهة التى بين الإنسان والحيوان، وبين الإنسان والطير فى الناحيتين: النفسية والتشريحية. فقد قارن

(١) المصدر السابق: مجلد ٢ ص ١٢٨.

(٢) المصدر السابق: مجلد ٢ ص ١٢٠.

(٣) المصدر السابق: مجلد ٢، ص ١٢١.

بين الانسان والطير والحمام، وقارن بين الإنسان والقرد والفرس وبعض الحيوانات الأخرى. وهو يستدل من ذلك على وحدة الخلق ووحدة الخالق وقد اقتفى أثره في ذلك العديد من العلماء والمفكرين المسلمين من أمثال ابن قتيبة وابن طفيل والدميري وابن عربي وغيرهم من العلماء والمفكرين.

والحق أن المشابهة لا تكفى دليلاً على أن الكائنات تطورت عن طريق التحول، وهى إن دلت على شيء فإنما تدل على وحدة الخلق ووحدة الخالق سبحانه وتعالى.

وقد أدرك ذلك الجاحظ بوعيه العلمي ومنطقه الإيماني حيث إنه ينفي اتخاذ المشابهة دليلاً على أصل الحيوان أو الطير بقوله "وإن كان الذى دعا إلى القول فى الزرافة أنهم جعلوا تركيب اسمه (اشتركا وبلنك) دليلاً على تركيب الخلق، فالجاموس بالفارسية (كاو ماش) وتأويله ضأنى بقرى، لأنهم وجدوا فيه مشابهة الكباش وكثيراً من مشابهة الثور، وليس أن الكباش ضربت فى البقر فجاءت الجواميس" (١).

(١) الجاحظ: كتاب الحيوان، ج ١ ص ١٥١ - ١٥٢.

وهناك ظاهرة تحدث الجاحظ عنها كثيرا وأكدها مرارا، وهى تأثير البيئة على الكائنات الحية بما فيها الإنسان. وهو بذلك سابق على إخوان الصفا وابن خلدون وغيرهم من القدماء والمحدثين الذين جاءوا بعده بقرون عديدة من أمثال لامارك ودارون والداروينيين الجدد.

فقد لاحظ الجاحظ أن للبيئة تأثيرا بالغا على الحيوان والإنسان، ولكن الإنسان أقوى على التكيف مع البيئة من الحيوان، ولا سيما إذا جىء به إليها صغيرا. وهو يعجب من كون "رجال الروم تصلح فى البدو مع الإبل، ودخول الإبل بلاد الروم هو هلاكها. فأما السند، فإن السندى صاحب الخبرة إذا صار إلى البدو وهو طفل خرج أفصح من أبى مهدية ومن أبى مطرف الغنوى" (١).

إن تأثير البيئة واضح فى اللون، فالحيوان ينصبغ بلون البيئة، فإذا كانت سوداء غدا أسود اللون، وإذا كانت خضراء اخضر اللون. وإذا نقلته من بيئة إلى بيئة أخرى استحال لونه من لون إلى

(١) المصدر السابق، ج٤ ص ٧١.

آخر: "وترى القملة فى رأس الشاب الأسود الشعر سوداء، وتراها فى رأس الشيخ الأبيض الشعر بيضاء، وتراها فى رأس شمطاء وفى لون الحمل الأورق، فإذا كانت فى رأس الخضيب بالحمرة، ترى حمراء فإذا نصل خضابه صار فيها شكلة بين بيض وحمرة، وقد ترى حرة بنى سليم وما اشتملت عليه من إنسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة فتراها كلها سوداء" (١).

كما تؤثر البيئة فى شكل الإنسان الخارجى وهيئته حتى يبدو مسخاً من المسوخ له شعر طويل كالحيوان ووجه يشبه القرد فى قبحه، وذنب أو شبه ذنب كسائر الحيوانات، وذلك إذا عاش فى بيئة سيئة التربة والهواء والماء. يقول الجاحظ: "وقد خبرنا من لا يحصى من الناس أنهم قد أدركوا رجالاً من نبط بيسان ولهم آذنان، أو عجوب طوال كالأنساب، وربما رأينا الملاح النبطى فى بعض الجعفرات على وجه شبه القرد، وربما رأينا الرجل فى المغرب فلا نجد بينه وبين المسخ إلا القليل.

(١) المصدر السابق نفسه.

وقد يجوز أن يصادف ذلك الهواء الفاسد والماء الخبيث والتربة الردية ناسا فى صنعة هؤلاء المغربيين ويكونون جهالا فلا يرتجلون ضنائة بمساكنهم وأوطانهم، ولا ينتقلون فإذا طال ذلك عليهم زاد فى تلك الشعور وفى تلك الأذئاب وفى تلك الألوان الشقر وفى تلك الصور المناسبة للقروء (١).

كما يظهر تأثير البيئة فى الطباع أيضا، ويعطى الجاحظ على ذلك مثل العرب الذين كانوا أعرابا ثم انتقلوا إلى بلاد خراسان فقتلوا عن جميع أخلاق البادية. ويذكر كذلك مثل الزنوج والترك وكيف أن طبيعة بلاد كل منهم أثرت على طباعهم تأثيرا واضحا. وتأثير البيئة لا يحدث فجأة وإنما يحتاج إلى أزمان متطاولة (٢).

وإذا كانت العوامل الخارجية تؤثر فى الكائنات الحية فإن هناك - أيضا - عوامل داخلية لها أثرها، كالوارثة وغيرها. يقول الجاحظ: "وشر الطبائع ما تجاذبته الأعراق المتضادة، والأخلاق المتفاوتة،

(١) الجاحظ: الحيوان، ج٤ ص ٧٢، ج٥، ص ٣٧٠.

(٢) المصدر السابق، ج٤ ص ٧٠ - ٧١ والبيان والتبيين ج٤ ص ٦ - ٧

والعناصر المتباعدة " (١) . ويقول في ظهور
الخصيات المتوارثة على قدر من العمر " أن الجعل
يظل دهنراً ولا جناح له ، ثم ينبت له جناحان ، وذلك
عند هلكه . والدعاميص قد تغير حيناً ثم تصير فراشاً
وليس كذلك الجراد والذباب ، لأن أجنحتها تنبت على
مقدار من العمر ومرور الأيام " (٢) .

ويتعلق بقانون الوراثة الذي تحدث عنه الجاحظ
موضوع آخر أو مبدأ آخر هو في حقيقته طريقة
أخرى لتنوع الكائنات الحية ، ذلك المبدأ هو التهجين
(Hybridization) ، ويقصد بهذا المبدأ التزاوج بين
فردين مختلفين في صفة وراثية واحدة أو أكثر ،
بحيث ينشأ في النسل الهجين صفات وراثية جديدة
مرغوبة ، تحقق الغاية المطلوبة ، ألا وهي التنوع
الوراثي في الأنسال .

لقد تحدث الجاحظ عن " التهجين " ، وعبر عنه
أحياناً بالخلق المركب ، وأخرى بالنتاج المركب ،
وثالثة بالحيوانات المشتركة ، وطبق ذلك على العديد
من الطيور والحيوانات (والبشر) .

(١) الجاحظ : كتاب الحيوان ، ج ١ ص ١٠٢

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١٥٨

وقد سبق الجاحظ بهذا الحديث عن " التهجين " كل من جاء بعده من القدماء والمحدثين من أمثال " الدميري " و "القزويني" و " الحافظ الدميّاطي " وأصحاب نظرية التطور الداروينية .

لاحظ الجاحظ أن الحيوان الجديد الذي يأتي من أبوين مختلفين يأتي أعظم من الأصل أحياناً ، كما هو الحال في البغل والحمام الراعي " وقد وجدنا عزمول البغل أطول من عزمول الحمار والفرس والبرذون ، وهؤلاء أعمامه وأخواله ، فقد وجدنا بعض الفئاج المركب وبعض الفروع المستخرجة أعظم من الأصل ، ووجدنا الحمام الراعي أعظم من الورشان الذي هو أبوه ومن الحمامة التي هي أمه ، ولم نجده أخذ من عمر الورشان شيئاً ، وخرج صوته من تقدير اصواتها ، كما خرج شحيج البغل من نهيق

الحمار وصهيل الفرس، وخرج الراعى مسرولا ولم يكن ذلك فى أبويه، وخرج مثقلا سىء الهداية، وللورشان هداية وإن كان دون الحمام، وجاء أعظم جثة من أبويه، ومقدار النفس فى ابتداء هديله إلى منقطعه أضعاف مقدار هديل أبويه (١). ومن خصائص النتاج المركب أنه أطول عمرا من أصله كالحمر الوحشية الأخرية (٢).

وعلى الرغم من هذا فإن النتاج المركب يبقى خاضعا للطبيعة لا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيه. فهناك حيوانات مختلفة، لا يمكن أن يتولد من تسافدها حيوان جديد أو لا تتسافد من نفسها كالغنم والماعز (٣).

وهنا يميز الجاحظ بين الأمور الواقعية فى مجال التهجين وبين الخرافات والأباطيل التى كانت

(١) الجاحظ: الحيوان ج١ ص ١٣٧ - ١٣٨.

(٢) المصدر السابق ج١ ص ١٣٩.

(٣) المصدر السابق ج١ ص ١٤٢.

تنتشر فى أيامه وتزعم أمورا وهمية غير صحيحة.
يقول الجاحظ: "وقد تجاسر ناس على توليد
أبواب من هذا الشكل (ويقصد به التهجين بين أنواع
حيوانية بعيدة بنسبها عن بعضها ولا يعقل أن تنتج
نسلا) فادعوا أمورا، ولم يحفلوا بالتقريع والتكذيب
عند مسألة البرهان، وقد زعموا أن الزرافة خلق
مركب بين الناقة الوحشية والبقرة الوحشية والذئب
(وهو ذكر الضباع). ومثل هذه الأقوال لا يحققها
الامتحان وما عندنا معرفة بها" (١). ويتشكك الجاحظ
فى الأقوال حول تيسافد الكلاب مع الثعالب، والثعالب
مع الهرة الوحشية، ويفند هذه الأقوال ويسفهاها،
ويصف أهلها بأنهم ناقلون غير مدققين، ومقلدون
غير مطبقين. ولم ينج أرسطو - فى نظر الجاحظ -
من ارتكاب هذا الخطأ، فزعم أن أصنافا من السباع
المتزاوجات المتلاحقات مع اختلاف الجنس
والصورة معروفة النتاج مثل الذئاب التى تسقد

(١) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ١٨٩ وما بعدها.

الكلاب فى أرض رومية، كما أن الكلاب السلوقية تتولد من سفاد الثعالب والكلاب (١).

كما ينكر الجاحظ مزاعم الأعراب الذين يقولون إن الجن والناس يتلاقحون فينتج من ذلك خلق مركب. ولا ينسى الجاحظ النتاج المركب بين أعراق الناس الذى يأتى أجمل من أصله وأقوى كالخلاسى الذى يتخلق بين الحبش والبيضاء، فالعادة فيه أن يخرج أعظم من أبويه وأقوى من أصلية (٢). ومن الأمثلة على التهجين بين الأنواع الحيوانية التى ذكرها الجاحظ وهى فى الوقت نفسه مطبقة فعلا فى الوقت الحاضر:

١ - التزاوج بين الحمير والخيول؛ فإذا كانت الأم فرسا أنتجت لنا بغلا كبيراً لكبر رحم أمه فهو شبيه بها وإذا كانت الأم "أتانا" أنتجت لنا "تغلا" فهو أشبه بأمه الحمار، وهو صغير الحجم (٣).

(١) المصدر السابق ج١ ص ١٨٣ - ١٨٥.

(٢) المصدر السابق ج١ ص ١٥٧.

(٣) الجاحظ: رسائل، تحقيق عبد السلام هارون، الخانجى سنة ١٩٦٥ ج٢ ص ٢٩٧ وقارن: القزوينى: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ص ٣٠٧.

٢ - التزاوج بين الورشان والحمامة، يعطى الحمام الراعى (١) "الذى ذهبت عنه هداية الحمام وشكل هديره وسرعة طيرانه، وبطل عنه عمر الورشان وقوة جناحه، وشدة عصبه، وحسن صوته، وشحو (اتساع) حلقه، وشكل لونه، وشدة إطرابه .. وفى الراعى أنه مسرول مثقل، وحدث له عظم بدن وتقل وزن، لم يكن لأبيه و لا لأمه" (٢). فهو لم يأخذ من هداية أمه شيئاً ولم يعطه أبوه من طول عمره شيئاً.

٣ - التزاوج بين فوالج البخت مع إناث البخت يعطى الحوار. وهى القصيرة العنق التى لا تتأكل كلاً ولا ماء إلا بمساعدة صاحبها. والبخت هى الإبل الخراسانية التى تنتج من عربية، وفالج هو الجمل الضخم ذو السنامين ويوجد فى "كازاخستان" وصحارى "تركمانستان". والتزاوج بين فوالج البخت وقلاص العرب يعطى "الجواميز" أو الجميزات (٣) (العرب نوع ممتاز من الإبل العربية،

(١) الجاحظ: الحيوان ج١ ص ١٠٢، ١٠٣، ١٣٧، ١٣٨. وقرن: ابن قتيبة: عيون الأخبار مجلد ٢ ص ٧٠.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج١ ص ١٠٢.

(٣) المصدر السابق ج٥ ص ٤٥٩.

والجواميز إيل ممتازة أيضا).

٤ - التزاوج بين الكلاب السلوقية و كلب الراعى يعطى الخلاسى (١).

هذا، ويرى الجاحظ أن "البغل" هو أكمل أشكال التهجين، وأنه عقيم، لا يلد. كما يرى أن "الزرافة" نوع من الحيوان قائم بنفسه كقيام الخيل والحمير، ومما يحقق ذلك أنه يلد مثله، وقد شوهد ذلك وتحقق.

ومن الظواهر التى لاحظها الجاحظ وتتصل بقضية التطور هى الشبه بين القرد والإنسان. فالجاحظ يذكر أوجه الشبه بين القرد والإنسان فى المظهر والحركات وكيفية تناول الطعام وتغميض عينيه والضحك وشكل الكف والأصابع، وفى التقليد والمحاكاة وقابلية التعلم والسباحة، حيث يقول: "وقد عرفت شبه باطن الكلب بباطن الإنسان، وشبه ظاهر القرد بظاهر الإنسان: ترى ذلك فى طرفه وتغميض عينيه، وفى ضحكه، وفى حكايته، وفى كفه وأصابعه، وفى رفعها ووضعها، وكيف يتناول بها، وكيف يجهز اللقمة إلى فيه، وكيف يكسر الجوز

(١) المصدر السابق ج١ ص ٣١١ - ٣١٢.

ويستخرج لبه، وكيف يلقن ما أخذ به وأعيد إليه، وأنه من جميع الحيوان إذا سقط في الماء غرق مثل الإنسان، ومع اجتماع أسباب المعرفة يغرق إلا أن يكتسب معرفة السباحة..(١).

ويختلف الجاحظ عن دارون، حيث يقول الجاحظ بالتطور الهابط أو النازل، نحو الأردأ أو الأخط وهو ما أطلق عليه اسم المسخ.

بينما يقول دارون بالتطور الصاعد الذاهب نحو الأرقى والأصلح. فالإنسان عند الجاحظ هو الذى انقلب إلى قرد وليس القرد هو الذى ارتقى إلى مرحلة الإنسانية(٢).

ويرى الجاحظ أن العوامل التى آلت إلى هذا التطور النازل أو المسخ هى البيئة التى أثرت فى الإنسان وأحالتة إلى قرد بسبب رذاعتها وفساد هوائها وخبث مائها(٣). ولكن هذا التطور ربما تم بالطفرة أى دفعة واحدة، وربما استغرق دهورا طوالا(٤). وهذا التطور صحيح طالما أنه لا يخالف الطباع(٥). إن ما يؤكد قرابة القرد والإنسان عند الجاحظ ليس فقط الظاهر الذى تحدثنا عنه أو الصفات

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ٣١٥.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج٤ ص ٩٩.

(٣) المصدر السابق: ج٤ ص ٧٢، والدلائل والاعتبار ص ٣٣ - ٣٤.

(٤) الجاحظ: الحيوان ج٤ ص ٧٢.

(٥) المصدر السابق ج٤ ص ٧٣.

الخارجية وإنما أيضا الباطن أو الناحية النفسية. ويشير الجاحظ إلى الشبه بين القرد والإنسان في خصلتين كريمتين هما الزواج والغيرة الجنسية قائلا: "واجتمع في القرد الزواج والغيرة وهما خصلتان كريمتان واجتماعهما من مفاخر الإنسان على سائر الحيوان. ونحن لم نر وجه شيء غير الإنسان أشبه صورة وشبها على ما فيه من الاختلاف، ولا أشبه فما وجها بالإنسان من القرد" (١).

وهكذا يتضح لنا من خلال حديث الجاحظ عن الحيوان أنه يشبه سلوك الحيوان بسلوك الإنسان، وأنه يعطى للحيوان وعيا شبيها بوعي الإنسان، وأنه ينظر إلى الحيوان نظرة غائية، أي أنه يعطى لسلوك الحيوان غاية إنسانية وهدفا محددا بوعي (٢)، الأمر الذي يدل على مدى عمق وعي الجاحظ وأصالته العلمية، وريادته في العلوم التي هي من مستحدثات علوم العصر الحديث.

وقد آن لنا أن نتحدث عن الإنسان عند الجاحظ، فما هو الإنسان، وما مفهومه، وما العقل، وما النفس اللذان للإنسان؟ وهل عند الجاحظ نزعة إنسانية؟

(١) المصدر السابق ج٤ ص ٩٨.

(٢) موريس روكن: تاريخ علم النفس، ترجمة على زيعور، دار الأتلس بيروت ١٩٧٨ ص ٤٩ وما بعدها.

الفصل السادس

الإنسان عند الجاحظ

أ - ما الإنسان؟

لقد حاول الجاحظ الإجابة عن هذا السؤال قائلاً بأن الإنسان عالم صغير، تشبيهاً له بالعالم الكبير "أو ما علمت أن الإنسان الذي خلقت السموات والأرض وما بينهما من أجله، كما قال عز وجل: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾؛ إنما سموه بالعالم الصغير سليل العالم الكبير، لما وجدوا فيه من جميع أشكال ما في العالم الكبير، ووجدنا له الحواس الخمس، ووجدوا فيه المحسوسات الخمس، ووجدوه يأكل اللحم والحب، ويجمع بين ما تقتات البهيمة والسبع، ووجدوا فيه صولة الجمل ووثوب الأسد وغدر الذئب، وروغان الثعلب .. وسموه العالم الصغير لأنهم وجدوه يصور كل شيء بيده، ويحكي كل صوت بفمه. وقالوا: لأن أعضائه مقسومة على البروج الإثني عشر والنجوم السبعة، وفيه الصفراء وهي من نتاج النار، وفيه السوداء وهي من نتاج الأرض، وفيه الدم وهو من نتاج الهواء، وفيه البلغم وهو من نتاج الماء .. فجعلوه العالم الصغير، إذ كان فيه جميع أجزائه وأخلطه وطبائعه" (١).

(١) الجاحظ: الحيوان جـ ١ ص ٢١٢ - ٢١٣.

فالإنسان عند الجاحظ هو العالم الصغير سليل العالم الكبير، لأنه يصوّر بيديه كل صورة، ويحكي بفمه كل حكاية، ولأنه يأكل النبات كما تأكل البهائم، ويأكل الحيوان كما تأكل السباع، وأن فيه من أخلاق جميع أجناس الحيوان أشكالا (١) وأن جسمه يتكون من العناصر التي يتكون منها العالم وهى النار والتراب والماء والهواء.

ويأخذ الجاحظ بتعريف أرسطو للإنسان فيقول: "حد الإنسان: الحى الناطق المبين" (٢). فالعقل والقدرة على التفاهم بالكلام أهم ميزة ميز الله بها الإنسان على الحيوان وبه يعبر عن حاجاته. ومن هنا يبدو الإنسان للجاحظ حيوانا، ولكنه حيوان عاقل وناطق. ولذا كثيرا ما يلجأ الجاحظ للمقابلة بين الإنسان والحيوان؛ فيلاحظ — مثلا — أن الجهاز الهضمى متشابه عند الإنسان والكلب (٣). كما يلاحظ الجاحظ شبيها قويا بين الإنسان والقرود فى المظهر الخارجى وبعض الصفات النفسية الباطنة. ولكن مع ذلك يبقى الفرق ماثلا بين الإنسان والحيوان، وهو

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج١ ص ٧٠.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج٧ ص ٤٩ والبيان والتبيين ج١ ص ٧٧.

(٣) المصدر السابق ج٢ ص ٢١٥.

فرق كبير وليس فرقا فى الدرجة وإنما هو فرق فى النوع أيضا، وذلك "لما أعطى الله الإنسان من الاستطاعة والتمكين، وحين فضله على جميع الحيوان بالمنطق والعقل والاستطاعة" (١). ومن أجل هذا نجد الجاحظ يرتب المخلوقات بحسب حظها من العقل، فأعلى الخلق منزلة الملائكة، ثم الإنسان، ثم الجن "وإنما صار لهؤلاء المزية على جميع الخلق بالعقل، وبلاستطاعة على التصرف، وبالمنطق" (٢). غير أن هذا لا يعنى أن الحيوان يخلو من المعرفة والقدرة على التعلم. فالجاحظ لا يفتأ يوضح هذه الظاهرة المدهشة عند الحيوان، وهى وجود المعارف الدقيقة الغريبة عنده. والفرق بين معارف الإنسان والحيوان هو أنها وليدة الغريزة عند الحيوان بينما هى وليدة الفكر عند الإنسان. يدل على ذلك أن الحيوان قد يعلم علما رائعا ويصنع بكفه صنعة قد يتفوق بها على الإنسان، ولا يهتدى إلى ما دون ذلك بطبع أو روية. والجاحظ يشرح فكرته بقوله: "قد قلنا فى أول هذا الجزء من القول فى الحيوان فى إحساس أجناسها المجعولة فيها وفى معارفها المظبوعة

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج١ ص ٧٠.

(٢) المصدر السابق ج١ ص ١٧٠.

عليها، ومن أعاجيب ما ركبت عليه من الدفع عن
أنفسها والتقدم فيما يحييها وفي تحسسها عواقب
أمورها وكل ما خافت من حوادث المكروه بقدر ما
ينوبها من الآفات ويعتربها من الحادثات، وإنها تدرك
ذلك بالطبع من غير روية، وبحس النفس من غير
فكرة، ليعتبر معتبر ويفكر مفكر، ولينفى عن نفسه
العجب ويعرف مقداره من العجز ونهاية قوته ..
والإنسان ذو العقل والاستطاعة والتصرف والروية
إذا علم علما غامضا وأدرك معنى خفيا لم يكدر يمتنع
عليه ما دونه إذا قاس بعض أمره على بعض.
وأجناس الحيوان قد يعلم بعضها علما ويصنع بكفه
صنعة يفوق بها الناس ولا يهتدى إلى ما هو دون
ذلك بطبع ولا روية، وعلى أن الذي عجز عنه في
تقدير العقول دون الذي قدر عليه" (١).

فالغريزة عند الحيوان تعمل إذن بدقة ولكن
دون روية ووعي، بينما عقل الإنسان يعمل بروية
وفكر وقياس ولكن بدقة أقل.

هذا ويرى الجاحظ أن آدم هو أصل البشر
أجمعين (٢).

(١) الجاحظ: الحيوان ج٧ ص ٧١ - ٧٢.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج٣ ص ٢٠٤.

ب - العقل عند الجاحظ:

العقل هبة من الله عز وجل منحها للإنسان ليكون أداة للتفكير والاعتبار وبذلك تميز الإنسان على سائر الحيوانات. يقول الجاحظ متسائلاً: "قلم أعطاه العقل؟ إلا للاعتبار والتفكير؟" (١).

ويبحث الجاحظ عن مكان العقل في الإنسان، ولكنه يتأرجح في ذلك بين رأيين: رأى يقول إن مركزه الدماغ والقلب طريق له، وآخر يقول إن القلب مركزه دون الدماغ (٢).

والإنسان يعلم، بوساطة العقل، الأشياء والظواهر التي تلتقطها الحواس، ولا تفقه سرها، ولكنه لا يعلم كيفية حدوث هذا العلم. ويعبر الجاحظ عن هذه الفكرة بقوله: "وأنا، جعلت فداك، أعلم أنى أسمع ولا أعقل كيفية السمع، وأعلم أنى أبصر ولا أعقل كيفية البصر" (٣). ويميز المرء، بوساطة العقل، بين الكلام الجميل والقبيح وبين الخير والشر، وبهذا يشبه العقل الذى يعقل البعير أو يمنعه من

(١) الجاحظ: الحيوان ج٧ ص ٥٤٣.

(٢) الجاحظ: رسالة التربيعة والتدوير ص ٨٦.

(٣) المصدر السابق ص ٨٦.

الشروء(١).

ومن هنا يصبح العقل وسيلة الرؤية الباطنية للأشياء على عكس الحواس التي تمد الإنسان بالرؤية الخارجية. ومن ثم كان العقل أعلى مرتبة وأثبت حجة ووجب الركون إليه أكثر من الحواس "فلا تذهب الى ما تريك العين، واذهب إلى ما يريك العقل. وللأمور حكمان: حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول، والعقل هو الحجة"(٢) فالعقل حاكم على الحس في رأى الجاحظ.

ولكن كيف يقوم العقل بعمله؟ إن عمل العقل يسمى التفكير، والتفكير يؤدي إلى المعرفة وفهم الحقائق، وأهم طرق التفكير الحدس والقياس. وقد عبر الجاحظ عن هذا بقوله: "سئل بعض الأعراب عن العقل، قال: الإصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن بما قد كان"(٣).

(١) الجاحظ: رسالة كتمان السر وحفظ اللسان ضمن رسائل الجاحظ ج١ ص ١٤١.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج١ ص ٢٠٧.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ج٤ ص ١٢٩.

وقد يتساءل الإنسان: متى يوجد العقل فى الإنسان؟ وهل يولد معه أم يكتسب اكتساباً؟ يجيب الجاحظ: إنه ملكة تولد مع صاحبها. فقد "قيل لرجل من الحكماء: متى عقلت؟ قال: ساعة ولدت. فلما رأى إنكارهم لكلامه قال: أما أنا فقد بكيت حين خفت، وطلبت الأكل حين جعت، وطلبت الثدى حين جعت، وسكت حين أعطيت"(١).

والعقل، على الرغم من أنه يولد مع الطفل، إلا أنه يحتاج إلى تعهد ومعالجة وتربية لكى ينمو ويقوى. وإذا أهمل ضعف وانحرف وأصيب بالعلل، وعندئذ يصعب تقويمه ويعضل علاجه. إن العقل فى نظر الجاحظ "أطول رقدة من العين، وأحوج إلى الشحذ من السيف، وأفقر إلى التعهد وأسرع إلى التعبير، وأدواؤه أقتل وأطبأؤه أقتل وعلاجه أعضل"(٢).

ويرى الجاحظ أن الحرية مبدأ مهم لا بد من توافره حتى يستطيع العقل القيام بعمله على الوجه الأكثر فائدة. ويعبر عن هذا المبدأ المهم بقوله:

(١) الجاحظ: الحيوان ج٧ ص ٥٦.

(٢) الجاحظ: رسالة التربيع والتدوير ص ١٠١.

"إن العقل إذا أكره عى" (١). فالإنسان إذا حرم من جو الحرية وجثم على عقله الإكراه والاستبداد انشل تفكيره. وإذا فكر جاء تفكيره معوجا ومنحرفا وغير مستقيم.

والحق أن الجاحظ - بإقراره لمبدأ الحرية العقلية والفكرية - يكون رائدا لمعركة حرية الفكر التى تدور رحاها اليوم فى العالم سابقا بذلك عصره ومؤكدا على أن الحرية بالنسبة إلى العقل كالنور بالنسبة إلى العين.

على أن الجاحظ يميز بين نوعين من العقل: هما العقل الغريزى المطبوع، والعقل المكتسب. وبهذا التمييز يكون سابقا على الفلاسفة المسلمين الذين أتوا بعده، من أمثال الفارابى وابن سينا وابن رشد. إن العقل الأول يولد مع الإنسان ويشكل غريزة أو استعدادا طبيعيا، أما العقل الثانى فإنه يتكون من التجارب التى يمر بها الإنسان فى حياته ويكتسب بالتعلم والتتقيف. أما العلاقة بينهما فهى أشبه بعلاقة الآلة بالمادة التى تستخدمها فى أداء وظيفتها. العقل الغريزى يشبه المصباح والعقل المكتسب يشبه الدهن: المصباح هو الآلة والدهن هو

(١) الجاحظ: الحيوان ج٤ ص ٤٥٢ .

المادة. يقول الجاحظ: "وقد أجمعت الحكماء أن العقل المطبوع والكرم الغريزي لا يبلغان غاية الكمال إلا بمعاونة العقل المكتسب، ومثلوا ذلك بالنار والحطب، والمصباح والدهن. وذلك أن العقل الغريزي آلة والمكتسب مادة، وإنما الأدب عقل غيرك تزيد في عقلك" (١).

ولعل الجاحظ يقصد بهؤلاء الحكماء فلاسفة اليونان وبخاصة أرسطو الذى ميز بين عقل بالقوة، وعقل بالفعل أو بالملكة، وعقل فعال. وقد تبنى الفارابى هذا التقسيم الوارد عند أرسطو، حيث يرى أن العقل بالقوة هو العقل الهولانى، وهو هيئة ما فى مادة معدة لأن تقبل صور المعقولات. ومتى حصلت المعقولات فى العقل بالقوة يصبح عقلا بالفعل بعد أن كان عقلا بالقوة. والعقل الفعال هو الذى ينقل العقل بالقوة إلى عقل بالفعل، وهذا العقل الفعال هو ذات ما، جوهره عقل ما بالفعل ومفارق للمادة. ومنزلة العقل الفعال من العقل الهولانى كمنزلة الشمس من

(١) الجاحظ: رسالة المعاد والمعاش، ضمن رسائل الجاحظ ج ١ ص

البصر. ومرتبة العقل الفعال من الأشياء المفارقة
المرتبة العاشرة (١)، بحسب نظرية الفيض.

ويلاحظ أن الفارابي قد جعل العقل الفعال
خارج النفس، وهذا ما لم يقل به أرسطو (٢). ولم
يوضح العلاقة بين العقل بالقوة والعقل بالفعل على
النحو الذي أوضحه الجاحظ، بل قال إن العقل بالفعل
هو العقل بالقوة ذاته بعد حصول المعقولات فيه.
ولعل ابن سينا قد نظر إلى التشبيه الذي ورد عند
الجاحظ ولكنه لم يأخذ به، وإنما أخذ بالتشبيه الوارد
في الآية القرآنية الكريمة: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ، الْمَصْبَاحُ فِي
زَجَاجَةٍ، الزَّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ
مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ
وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ (٣).

وجعل العقل بالقوة أو العقل الهيولاني قوة

(١) الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، دار المشرق بيروت ١٩٧٣
ص ٦٢، ١٠١ - ١٠٢.

(٢) ابن رشد: تلخيص كتاب النفس لأرسطو، النهضة المصرية،
القاهرة ١٩٥٠ ص ٨٥.

(٣) سورة النور، الآية ٣٥.

من قوى النفس مستعدة لقبول المعقولات وشبهه
بالمشكاة. النفس مستعدة لقبول المعقولات وشبهه
بالمشكاة. وجعل العقل بالفعل قوة أخرى فى النفس
قد حصلت فى المعقولات المكتسبة وشبهه
بالمصباح. وبين العقل الهولانى والعقل بالفعل يوجد
العقل بالملكة وهو الذى لا توجد فيه سوى المعقولات
الأولى وشبهه بالزجاجة الشريفة. أما العقل الفعال
فهو الذى يخرج العقل بالقوة إلى عقل بالملكة وعقل
بالفعل وقد شبهه بالنار (١).

والحق أن نظرة الجاحظ إلى العقل تعد أكثر
واقعية من نظرتى الفارابى وابن سينا؛ إذ ليس فى
الإنسان سوى عقل واحد، ولا يوجد خارجه أى عقل
على الإطلاق.

هذا ويرى الجاحظ أن عقول معظم الناس
متقاربة، إلا فيما ندر، حيث نجد بعض الأفراد ترجح
عقولهم على الآخرين. وهو بهذا سابق على
الفيلسوف الفرنسى "ديكارت" الذى كان يرى أن
العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس بالتساوى. يقول

(١) ابن سينا: الإشارات والتبهيئات، دار المعارف بمصر، ١٩٦٠
ج ٢ ص ٣٦٣ - ٣٦٧ .

الجاحظ: "وذكر صالح بن سليمان، عن عتبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث قال: "ما رأيت عقول الناس إلا قريبا بعضها من بعض إلا ما كان من الحجاج بن يوسف، وإياس بن معاوية فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس كثيرا" (١).

ج - النفس الانسانية عند الجاحظ:

بتواضع العالم يقر الجاحظ بأن مصادره عن النفس قليلة، وأنه لم يقرأ عن هذا الموضوع المجلدات الكثيرة، كما نراه يهاجم المتكلمين الذين بحثوا موضوعها واتهمهم بالفضول والجهل بأنهم يريدون أن يعلموا كل شيء ويأبى الله ذلك (٢).

وهناك رأى طريف في النفس ينسبه الجاحظ إلى متكلم جليل رئيس، يثير لديه الاستغراب والدهشة، خلاصته أن النفس من جوهر النسيم أو الهواء، وأن النفوس المتفرقة في الأجرام الحيوانية ليست سوى أجزاء من النسيم. وحكم النفوس في علاقتها مع الهواء الخارجى الذى يملأ الفضاء حكم

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٩٩ - ١٠٠.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج ٤ ص ٣١٩.

الأشعة المنبثقة عن قرص الشمس وهذه النفوس تغادر الأجسام وتتقطع إلى أصلها أي الهواء إذا سدت منافذ الجسم كما ينقطع الضوء بالطفرة إلى عنصره من قرص الشمس إذا سدت الكوة التي ينفذ منها الشعاع إلى داخل المكان (١).

ويبدو أن هذا المتكلم الجليل الرئيس هو "النظام" على الأرجح لأنه صاحب نظرية الطفرة، ولأن هذا التشبيه القائم على علاقة الشعاع بقرص الشمس قد عزاه الجاحظ إلى النظام في معرض الكلام عن كمون النار، وليست هذه هي المرة الأولى التي يخالف فيها الجاحظ أستاذه، فلقد عارضه في آراء كثيرة .

والحق أن هذا الرأي يجعل النفس جوهرًا ماديًا، ويلتقي فيه مع صاحبه "ديموقريطس" الذي قال إن النفس مؤلفة من أدق الجواهر وأسرعها حركة، وهذه الجواهر منتشرة في الهواء يدفعها إلى الأجسام فتتغلغل في البدن كله وتتجدد بالتنفس في كل آن، وتدوم الحياة ما دام التنفس. ويستعمل الجاحظ كلمة "نفس" بمعنى الذات

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ١١٢ - ١١٣ .

في قوله: "إن الظربان إذا أراد أن يأكل حسلة الضب، والضب نفسه، اقتحم حجر الضب مستدبرا" (١).

كما يستعملها بمعنى القوة الشهوانية طبقا لما جاء في قول الحسن البصري: "أقعدوا هذه النفوس فإنها طلعة، واعصوها فإنكم إن أطعتموها تترع بكم شر غاية، وحدثوها بالذكر فإنها سريعة الدثور" (٢).
والنفس عند الجاحظ هي مركز الحاجات التي يشعر بها الانسان، كالحاجة إلى الغذاء، والحاجة إلى الطمأنينة، والحاجة إلى الجنس، والحاجة إلى اليقين والمعرفة. وفي النفس قوى تعمل على تلبية هذه الحاجات (٣).

إن أهم قوى النفس هي الإحساس والعقل والذاكرة والنطق، يقول الجاحظ: "تأمل هذه القوى التي في النفس وموقعها من الإنسان، أعنى الفكر والوهم والعقل والحفظ وسائر ذلك.. فكر فيما أنعم الله على الإنسان من هذا المنطق الذي يعبر به عما

(١) المصدر السابق ج ٦ ص ٤٨ .

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠٠ .

(٣) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ١٠٨ - ٢١٤ .

يضمره ويفهم عن غيره ما في نفسه، ولولا ذلك كان بمنزلة البهيمة التي لا تخبر عن نفسها بشيء ولا تفهم عن مخبر شيئاً" (١).

والجاحظ يجعل الحواس خمسا، شأنه في ذلك شأن القدماء من الفلاسفة اليونان وهي: البصر والسمع والشم والذوق واللمس، إلا أن الجاحظ يتوقف عند فكرة مهمة وهي تخصيص الحواس بالمحسوسات بحيث يقصر كل حاسة على محسوس معين تعمل فيه ولا تستطيع أن تتعداه إلى محسوس آخر. وهو يقطع بأنه لا يمكن أن تكون في العالم أشياء لا ندركها بالحواس "لأنها إذا وجدت، تكون فضلا لا معنى له، وليس في الخلقة شيء لا معنى له" (٢).

ويشير الجاحظ إلى قانون عتبة الإحساس أو الحد الذي ضمنه تقوم الحواس بعملها فتدرك المحسوسات، فإذا تجاوزت هذا الحد لم تعد تدرك. وهذا هو ما عبر عنه الجاحظ بقوله: "إن لكل حاسة قوة، فإذا امتلأت تلك القوة من محسوسها، لم تجد

(١) الجاحظ: الدلائل والاعتبار ص ٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٧ - ٤٨ .

وراءها طعما ولا ريحا، وعاد عليها بالضرر.
فبعض النظر يعمى، والصوت الشديد يصبم،
والرائحة المنتنة تبطل الشم، والأطعمة الحارة
المحرقة تبطل حاسة اللسان" (١).

ويرى الجاحظ أن الحواس جنس واحد،
فحاسة البصر من جنس حاسة السمع وسائر
الحواس، لأن النفس هي المدركة وإدراكها يتم من
خلال هذه النواقد التي تسمى بالحواس.

ولكن لماذا اختلفت الحواس فصار واحد منها
سمعا والآخر بصرا والثالث شمًا؟ وهكذا. يجيب
الجاحظ على ذلك بأن اختلاف الحواس إنما يرجع
إلى ما مازجها من الموانع أو الشوائب، فمثلا لا
يدرك البصر الأصوات لأن شائبه من جنس الزجاج
الذى يمنع من درك الصوت ولا يمنع من درك
اللون.

ويفرق الجاحظ بين ثلاثة أنواع من
المحسوسات؛ فهناك محسوسات متضادة كالسواد
والبياض، ومحسوسات مختلفة كالطعم واللون،

(١) الجاحظ: رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ضمن رسائل الجاحظ
ج ١ ص ١٤١ .

ومحسوسات متفقة (١).

وهناك جانب مهم يتعلق بالنفس عند الجاحظ؛ هذا الجانب هو القدرة الفائقة التي تمتع بها الجاحظ على تحليل النفس الانسانية. تلك القدرة التي نراها في أماكن عديدة من كتبه ورسائله. ففي كتاب البخلاء - مثلاً - يصف الجاحظ دوافع البخل والجود عند الناس، فيعتمد إلى سرد نوادر وأخبار عديدة عن الأشحاء تصف حركاتهم وتصرفاتهم وطرائق تفكيرهم، ومشاعرهم، ومختلف الحيل التي يلجأون إليها لجمع المال ومنعه، وكيف ينظرون إلى الأمور ويحكمون عليها. ويلجأ الجاحظ إلى طريقة أخرى غير النوادر والأخبار لتصوير نفسية البخلاء، وهي الاحتجاجات التي تعكس مناهج التفكير عند هؤلاء الناس. وهو يعزو هذه الاحتجاجات إلى مفكرين مشهورين من أمثال الفيلسوف الكندي وسهل بن هارون وغيرهم. ونجده في رسالة أخرى يصف ذلك الصراع الذي يعتمل في نفس الانسان بين الهوى

(١) الأشعري: مقالات الاسلاميين، النهضة المصرية، القاهرة

١٩٦٩، ج ٢ ص ٣٣ - ٣٤.

الذى يدفعه إلى إذاعة السرّ، والعقل الذى يصده عن ذلك، فيقول: "إنه لا شيء أصعب من مكابدة الطبائع ومغالبة الأهواء، فإن الدولة لم تزل للهوى على الرأى طوال الدهر. والهوى هو الداعية إلى إذاعة السرّ، وإطلاق اللسان بفضل القول" (١).

والعقل إنما سمي عقلا - كما يقول الجاحظ - لأنه يقيد اللسان ويعقله عن الجهر بالكلام المضر كما يحجر عن الصغير وكما يعقل البعير. وهو يشبه اللسان بالترجمان عن القلب، ويشبه القلب بالخرانة التى تحفظ الأسرار وتصونها، وتخزن ما يعيه الإنسان من الحواس من خير وشر وما تولده الشهوات والأهواء وما تنتجه المعارف والعلوم.

ولكن القلب ينزع إلى التخلص مما فيه والإفضاء به: "وكانه يضيق بما ينطوى عليه ويستثقل ما حمل منه، فيستريح إلى نبذه ويلذ إلقاءه على اللسان، ثم لا يكاد أن يشفيه أن يخاطب به نفسه في خلواته حتى يفضى به إلى غيره ممن لا يرعاه ولا يحوطه. كل ذلك ما دام الهوى مستوليا على

(١) الجاحظ: رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ضمن رسائل الجاحظ، ج ١ ص ١٤١.

اللسان، فإذا قهر رأى الهوى فاستولى على اللسان، منعه من تلك العادة وردّه عن تلك الدربة وجشّمه مؤونة الصبر على ستر الحلم والحكمة" (١).

إن اللسان في حد ذاته ليس سوى أداة للتعبير عن الضمير، فهو لا يستحق المدح أو الذم، وإنما الحمد للحلم واللوم على الجهل. وهكذا يكون الحلم الاسم الجامع لكل فضل، وهو سلطان العقل القاهر للهوى وتداعياته.

إن ميل الانسان إلى الإفشاء بما يزخر به صدره من الأخبار شيء طبيعي فطر عليه، ومن هنا كانت حلاوة الأخبار والاستخبار عند الناس وهذا هو أساس ما جبل عليه البشر من نقل الأخبار عن الماضين إلى الباقين، وعن الغائبين إلى الشاهدين. وبهذا "ثبتت حجة الله على من لم يشاهد مخارج الأنبياء، ولم يحضر آيات الرسل، وقام مجيء الأخبار عن غير تشاعر ولا تواطؤ مقام العيان، وعرفت البلدان والأقطار" (٢).

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٢) الجاحظ: رسالة كتّمان السر وحفظ اللسان، ضمن رسائل الجاحظ

ج ١ ص ١٤٣ - ١٤٤ .

ومن هنا فقد عسر على الإنسان كتمان السر بسبب طبيعته هذه، حتى ليغشاه الحزن والهم من كتمان السر، ويعتريه كمد وسقم يحس به في سويداء قلبه يشبه دبيب النمل وحكة الجرب ولسع الدبر. ومما يؤيد هذا الرأي ما يروى عن الأعمش (١٨٨هـ) المحدث المعروف أنه كان لضيق صدره بما فيه من الأخبار، وعدم قدرته على البوح بها يقبل على شاة كانت له، فيحدثها بالأخبار والفقهاء حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول: "ليت أنى كنت شاة الأعمش" (١).

ونجد تلك القدرة على تحليل النفس الإنسانية، والحرص على كشف أعماق الإنسان في رسالة أخرى للجاحظ، حيث يعقد أبو عثمان مقارنة بين هذين الميلين من ميول النفس البشرية وهما العداوة والحسد فيرى أن العداوة تقترب بالعقل الذى يسوسها، أما الحسد فلا يواكبه العقل. والحسد يبدأ بالأدنى أما العداوة فتبدأ بالأبعد. والحسد يستمر ما دام المحسود، أما العداوة فتحدث لعل وتزول بزوال

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٤٥.

تلك العلة. والعداوة تضعف وتخلق وتمل، أما الحسد فيظل غضا جديدا لا يبيد. والحسد آلم وآذى من العداوة، وهو ناتج عن فساد الطبع واعوجاج التركيب واضطراب النفوس. والحسد أخ الكذب فهما لا يفترقان، أما العداوة فقد تخلو من الكذب. والحسد أفشى في أهل العلم، وحسد الجاهل أهون من حسد العارف الفطن(١).

ويظهر أن كلام الجاحظ في هذا الموضوع صادر عن تجربة مرت به؛ فهو يقول إن كثيرا من الكتاب حسدوه على إنتاجه، وراحوا يقللون من شأنه والحق أن للجاحظ لفتات نفسية رائعة منها أنه قد لاحظ أن الفساد أسرع إلى الناس من الصلاح، فلو "جالست الجهال والنوكى والسخفاء والحمقى شهرا فقط لم تتق من أضرار كلامهم، وخبال معانيهم بمجالسة أهل البيان والعقل دهرا، لأن الفساد أسرع إلى الناس، وأشد التحاما بالطبائع"(٢).

(١) الجاحظ: فصل ما بين العداوة والحسد، ضمن رسائل الجاحظ

ج ١ ص ٣٣٧ - ٣٧٣.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٨٦ .

د - الإنسان كائن اجتماعي:

الإنسان عند الجاحظ كائن اجتماعي، والاجتماع ضرورة له. يقول الجاحظ: ثم اعلم رحمك الله تعالى - أن حاجة بعض الناس إلى بعض صفة لازمة في طبائعهم، وخلقة قائمة في جواهرهم، وثابتة لا تزالهم، ومحيطة بجماعتهم، ومشتمة على أدناهم وأقصاهم، وحاجتهم إلى ما غاب عنهم - مما يعيشهم ويحييهم، ويمسك بأرماقهم، ويصلح بهم، ويجمع شملهم، وإلى التعاون في درك ذلك، والتوازر عليه - كحاجتهم إلى التعاون على معرفة ما يضرهم، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق بأمورهم التي لم تغب عنهم؛ فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد لاحتياج الأدنى إلى معرفة الأقصى، واحتياج الأقصى إلى معرفة الأدنى؛ معان متضمنة وأسباب متصلة، وحبال منعقدة. وجعل حاجتنا إلى معرفة أخبار من كان قبلنا، كحاجة من كان قبلنا إلى أخبار من كان قبلهم وحاجة من يكون بعدنا إلى أخبارنا؛ ولذلك تقدمت في كتب الله البشارات بالرسول، ولم يسخر لهم جميع خلقه، إلا وهم يحتاجون إلى الارتفاق بجميع خلقه. وجعل

الحاجة حاجتين: إحداهما قوام وقوت، والأخرى لذة وإمتاع وازدياد في الآلة، وفي كل ما أجذل النفوس، وجمع لهم العتاد. وذلك المقدار من جميع الصنفين وفقا لكثرة حاجتهم وشهواتهم، وعلى قدر اتساع معرفتهم وبعد غورهم، وعلى قدر احتمال طبع البشرية وفطرة الإنسانية. ثم لم يقطع الزيادة إلا لعجز خلقهم عن احتمالها، ولم يجز أن يفرق بينهم وبين العجز، إلا بعدم الأعيان، إذ كان العجز صفة من صفات الخلق، ونعتا من نعوت العبيد.

لم يخلق الله تعالى أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه، دون الاستعانة ببعض من سخر له، فأدناهم مسخر لأقصاهم، وأجلهم ميسر لأدقهم، وعلى ذلك أحوج الملوك إلى السوق في باب، وأحوج السوق إلى الملوك في باب، وكذلك الغنى والفقير، والعبد وسيده. ثم جعل الله تعالى كل شيء للإنسان خولا، وفي يده مذلا ميسرا، إما بالاحتياج له والتلطف في إراغته واستمالته، وإما بالصولة عليه، والفتك به، وإما أن يأتيه سهوا و رهوا. على أن الإنسان لولا حاجته إليها لما احتال لها، ولا صال عليها. إلا أن الحاجة تفرق في الجنس والجهة والجملة وفي الحظ

والتقدير. ثم تعبد الإنسان بالتفكير فيها، والنظر في أمورها، والاعتبار بما يرى، ووصل بين عقولهم وبين معرفة تلك الحكم الشرفه، وتلك الحاجات اللازمة بالنظر والتفكير، وبالتتقيب والتتقير، والتثبت والتوقف؛ ووصل معارفهم بمواقع حاجاتهم إليها، وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها بالبيان عنها.

وهو البيان الذى جعله الله تعالى سببا فيما بينهم، ومعبرا عن حقائق حاجاتهم، ومعرفا لمواضع سد الخلة ورفع الشبهة، ومداواة الحيرة، ولأن كثرة الناس عن الناس أفهم منهم عن الأشباح المائلة، والأجسام الجامدة والأجرام الساكنة، التى لا يتعرف ما فيها من دقائق الحكمة وكنوز الآداب، وينابيع العلم إلا بالعقل الثاقب اللطيف، وبالنظر التام النافذ، وبالأداة الكاملة، وبالأسباب الوافرة، والصبر على مكروه الفكر، والاحتراس من وجوه الخدع والتحفظ من دواعى الهوى؛ ولأن الشكل أفهم عن شكله، وأسكن إليه وأصيب به. وذلك موجود في أجناس البهائم، وضروب السباع. والصبى عن الصبى أفهم له، وله آلف وإليه أنزع، وكذلك العالم والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عز وجل لنبيه صلى

الله عليه وسلم: ﴿ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا﴾
لأن الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعه بطباعه آنس،
وعلى قدر ذلك يكون موقع ما يسمع منه.

ثم لم يرض لهم من البيان بصنف واحد، بل
جمع ذلك ولم يفرق، وكثر ولم يقلل، وأظهر ولم
يخف، وجعل آلة البيان التي بها يتعارفون معانيهم،
والترجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم، في
أربعة أشياء، وفي خصلة خامسة، وإن نقصت عن
بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تبدل بجنسها الذي
وضعت له وصرفت إليه، وهذه الخصال هي: اللفظ،
والخط، والإشارة، والعقد؛ والخصلة الخامسة ما
أوجد من صحة الدلالة، وصدق الشهادة ووضوح
البرهان، في الأجرام الجامدة والصامته والساكنة
التي لا تتبين (لا تفهم) ولا تحس، ولا تفهم ولا
تتحرك إلا بداخل يدخل عليها، أو عند ممسك خلي
عنها، بعد أن كان تقييده لها.

ثم قسم الأقسام، ورتب المحسوسات، وحصل
الموجودات، فجعل اللفظ للسامع، وجعل الإشارة
للناظر، وأشرك الناظر واللامس في معرفة العقد،
إلا بما فضل الله به نصيب الناظر في ذلك على قدر

نصيب اللامس؛ وجعل الخط دليلا على ما غاب من حوائجه عنه، وسببا موصولا بينه وبين أعوانه؛ وجعله خازنا لما لا يأمن نسيانه، مما قد أحصاه وحفظه، وأتقنه وجمعه، وتكلف الإحاطة به؛ ولم يجعل للشام وللذائق نصيبا" (١).

هـ النزعة الإنسانية عند الجاحظ:

لا شك أن اهتمام الجاحظ بالإنسان يوضح لنا أن النزعة الإنسانية ماثلة عنده ومتوافرة. وهي تظهر لنا في تناوله مختلف فئات الناس بالمراقبة والتأمل والدراسة، فالجاحظ يتكلم عن الملوك والولاة والكتاب والحجاب والقواد، كما يتحدث عن المعلمين والتجار والوكلاء والمغنين والقضاة والأطباء والعطارين والوراقين، وسائر أصحاب الحرف والمهن. ويدرس أصحاب العاهات والمنحرفين أخلاقيا كاللصوص والقحاب واللاطاة والبرصان والعرجان والعميان والحولان والطفيليين والبخلاء. ولا ينسى أعراق الناس وأجناسهم، فيبحث

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٤٢ - ٤٦ .

في فصل ما بين الرجال والنساء والفرق بين الذكر والأنثى، وفي السودان والبيضان، وفي العرب والعجم والترك، وفي الموالى والسادة، وفي الصرحاء والهجناء، وفي الشعوبية وغير ذلك.

كما تتجلى النزعة الانسانية - أيضا - في العناية بتحليل نفسية الانسان، كما ذكرنا من قبل، والغوص في أعماقها لمعرفة الميول الدفينة والغرائز الفطرية والدوافع التي تحرك الانسان وتحدد سلوكه وطباعه.

وتظهر النزعة الانسانية لدى الجاحظ في الحديث عن المكانة التي تبوأها الانسان في سلم المخلوقات. فالانسان في نظر الجاحظ سيد مخلوقات هذا العالم، وقد سخرها الله تعالى له، تعمل لخدمته، وأبيح له التصرف فيها والاستمتاع بخيرات الأرض جميعا. وقد تميز الانسان بهبة عظيمة منحه الله إياها، وهي العقل الذي يعرف به نفسه والعالم والله تعالى. وما عليه إلا أن يشكر الله على تلك المنحة ويستغلها خير استغلال، فينظر ويتأمل ويعرف ويعتبر (١). وكيف لا "والفلك وجميع ما تحويه

(١) الجاحظ: الدلائل والاعتبار ص ٨ .

الأرض، وكل ما تكله أكنافها للإنسان خول ومتاع إلى حين" (١).

كذلك تظهر النزعة الانسانية عند الجاحظ في الدعوة إلى التسامح بين أبناء الأمم المختلفة، حيث دعا الجاحظ إلى نبذ العصبية القومية، وإلى التعاون والمحبة بين الشعوب المختلفة الأعراق واللغات والمذاهب والتقاليد، لأن الذي يجمع الناس أكثر مما يفرقهم، وهم يرتبطون جميعا برابطة الانتماء إلا النوع الانساني، وكلهم مخلوقات الله عز وجل.

لقد وردت هذه الأفكار في أماكن عدة من كتب الجاحظ ورسائله ولا سيما كتاب "البيان والتبيين" في سياق رده على الشعوبية، وفي رسالة "مناقب الترك وعامة جند الخلافة". وهناك ملامح من النزعة الانسانية عند الجاحظ نجدها في نظريته إلى الجمال وموقفه من المساواة بين المرأة والرجل وحملته على الخصاء .

وإذا كان المفكرون الآخرون بالاتجاه الانساني، قد أهملوا العلوم الطبيعية واهتموا بالعلوم

(١) الجاحظ: كتاب القيان، رسائل الجاحظ ج ٢ ص ١٤٦ .

الانسانية كالأدب والفلسفة والدين والأخلاق والتاريخ والخطابة واللغة، فإن الجاحظ قد اهتم مثلهم بالانسان وبهذه العلوم التي تهدف إلى تنمية قواه العقلية والجسدية وتقويم أخلاقه وإرهاف حسه الجمالي، ومع ذلك اعتنى بالطبيعة وعلومها. وباختصار لقد عرف الجاحظ كيف يوفق بين النزعة الانسانية والنزعة الطبيعية، مع اهتمامه بمهاجمة الأوهام والأساطير ودعوته إلى الشك في الأخبار وإلى تحكيم العقل والمنطق، ونقده لشيوخ الفرق الاسلامية من شيعة وخوارج ومرجئة، ومحاولته إقامة الدين الاسلامي على فكرة العناية أو الحكمة الإلهية التي تتجلى بأوضح معانيها في الطبيعة ولا سيما الحيوانات بجميع أنواعها. غير أن الجاحظ لم يتصور الانسان عالما مطلقا في حد ذاته كما هو الحال عند الانسانيين المحدثين، وإنما هو خاضع لقدرة الله ومشيئته. فرحم الله الجاحظ ذلك المفكر العملاق، وصاحب النزعة الانسانية.

فهرس المصادر والمراجع

(مراعى فيه حذف الألف واللام وابن وأبو).

- ١ - إخوان الصفا: رسائل طبعة ١٣٠٥هـ
- ٢ - أرسطو: المنطق، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى، القاهرة ١٩٤٨م
- ٣ - أرسطو: طباع الحيوان، ترجمة يحيى بن البطريق، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٧م، (ويضم الكتاب المقالات العشر الأولى).
- ٤ - أرسطو: أجزاء الحيوان، ترجمة يحيى بن البطريق، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٨م. (ويضم الكتاب المقالات من الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة).
- ٥ - أرسطو: كون الحيوان، ترجمة يحيى بن البطريق، تحقيق يان بروخمان، مؤسسة دى فوى ليندن، ١٩٧١م، (ويضم الكتاب المقالات الخمس الأخيرة).
- ٦ - الأشعرى (أبو الحسن): مقالات الإسلاميين، استانبول ١٩٣٠، والقاهرة ١٩٦٩م.

- ٧ - أمين (أحمد): ضحى الإسلام، الطبعة السادسة،
القاهرة ١٩٧١.
- ٨ - بدوى (عبد الرحمن): شروح على أرسطو
مفقودة فى اليونانية ورسائل أخرى،
دار المشرق، الطبعة الأولى بيروت،
١٩٧٢م.
- ٩ - البغدادى (أبو البركات): المعتبر فى الحكمة،
جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد
الدكن ١٣٥٨هـ.
- ١٠ - البغدادى (الخطيب): تاريخ بغداد، مكتبة
الخانجى، القاهرة ١٩٣١م.
- ١١ - البغدادى (عبد القاهر) : الفرق بين الفرق،
دار الآفاق، بيروت ١٩٧٣م.
- ١٢ - بينيس (س.) : مذهب الذرة عند المسلمين
وعلاقته بمذاهب اليونان والهنود، ترجمة
الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة، القاهرة
١٩٤٦م.
- ١٣ - التوحيدى (أبو حيان): المقابسات، تحقيق
حسن السندوبى، القاهرة ١٩٢٩.
- ١٤ - التوحيدى (أبو حيان): الإمتاع والمؤانسة.

- ١٥ - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): آثار الجاحظ، تحقيق عمر أبو النصر، بيروت، ١٩٦٩م.
- ١٦ - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البرصان والعرجان والعميان والحولان، دار الإعتصام، القاهرة.
- ١٧ - الجاحظ: (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، دار الفكر للجميع، بيروت، ١٩٦٧م.
- ١٨ - الجاحظ: (أبو عثمان عمرو بن بحر): الترتيب والتدوير، تحقيق فوزى عطوى، بيروت، ١٩٦٩م.
- ١٩ - الجاحظ: (أبو عثمان عمرو بن بحر): البخلاء، تحقيق طه الحاجرى، دار المعارف بمصر ١٩٧١م.
- ٢٠ - الجاحظ: (أبو عثمان عمرو بن بحر): الحيوان، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة ١٩٤٥.
- ٢١ - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): رسائل الجاحظ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون،

- مكتبة الخانجي بمصر سنة ١٩٦٥م.
- ٢٢ - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): المختار
في الرد على النصارى، تحقيق الدكتور محمد
عبد الله الشرقاوى، القاهرة.
- ٢٣ - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): الدلائل
والاعتبار على الخلق والتدبير، المطبعة
العلمية، حلب، ١٩٢٨م.
- ٢٤ - جبرى (شفيق): الجاحظ، مجلة المجمع العلمى
العربى، دمشق.
- ٢٥ - الحاجرى (طه): الجاحظ: حياته وآثاره، دار
المعارف بمصر ١٩٦٢م.
- ٢٦ - الحسينى (د. أحمد حماد): كتاب الحيوان
للجاحظ، مجلة تراث الإنسانية القاهرة
١٩٦٤م.
- ٢٧ - خليفة (حاجى): كشف الظنون عن أسامى
الكتب والفنون، المطبعة الإسلامية، طهران
١٣٧٨هـ.
- ٢٨ - دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية،
المجلد السادس.
- ٢٩ - دارون (تشارلز): أصل الأنواع، ترجمة

- إسماعيل مظهر، بيروت ١٩٧٣م.
- ٣٠ - دى بور: تاريخ الفلسفة فى الإسلام، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة، القاهرة ١٩٥٤.
- ٣١ - الرازى (أبو بكر): رسائل فلسفية، دار الآفاق، بيروت، ١٩٧٧م.
- ٣٢ - ابن رشد: تلخيص كتاب النفس لأرسطو، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٠م.
- ٣٣ - ابن سينا: الإشارات والتبهيّات، دار المعارف بمصر ١٩٦٠م.
- ٣٤ - الشهرستانى: الملل والنحل، مصطفى البابى الحلبي، القاهرة ١٩٦١م.
- ٣٥ - عبد العليم (د. أنور): قصة التطور، دار القلم، القاهرة.
- ٣٦ - عزام (د. محفوظ): نظرية التطور عند مفكرى الإسلام، دار الهداية، القاهرة ١٩٨٦م.
- ٣٧ - عفيفى (د. محمد الصادق): تطور الفكر العلمى عند المسلمين، القاهرة ١٩٧٧م.
- ٣٨ - الفارابى: آراء أهل المدينة الفاضلة، دار

المشرق، بيروت ١٩٧٣.

٣٩ - فرج (د. حسين) وآخر: دراسات فى علم الحيوان وراة التاريخ الطبيعى، القاهرة، ب. ت.

٤٠ - ابن قتبية: عيون الأخبار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٦٣م.

٤١ - القزوينى: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مصطفى البابى الحلبي، القاهرة ١٩٧٠م.

٤٢ - كرم (يوسف): الطبيعة وما بعد الطبيعة، الطبعة الثالثة، القاهرة.

٤٣ - محجوب (فاطمة): دائرة معارف الشباب، الطبعة الأولى، القاهرة.

٤٤ - ابن المرتضى: طبقات المعتزلة ببيروت، ١٩٦١م.

٤٥ - المسعودى: مروج الذهب، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٧٣م.

٤٦ - موريس روكلن: تاريخ علم النفس، ترجمة على زيعور، دار الأندلس، بيروت ١٩٧٨م.

٤٧ - الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال، القاهرة.

٤٨ - مييلى (الدو): العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى، الترجمة العربية، القاهرة ١٩٦٢م.

٤٩ - ابن نباتة: سرح العيون بشرح رسالة ابن زيدون، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٣٤م.

٥٠ - الهاشمى (د. محمد يحيى): تحليل رأى الجاحظ فى الطيور المهاجرة، مجلة الثقافة العدد ٢٨٠، السنة السادسة، القاهرة ١٩٤٤م.

٥١ - هويدى (د. يحيى): محاضرات فى الفلسفة الإسلامية، القاهرة ١٩٦٦م.

الفهرست	
الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الفصل الأول: مكانة الجاحظ ومنهجه...	٩
أ - مكانة الجاحظ العلمية والفكرية.	١١
ب - قواعد المنهج عند الجاحظ.....	١٩
الفصل الثاني: جوانب الفلسفة الطبيعية عند الجاحظ.....	٣١
الفصل الثالث: الجماد (الموات).....	٤٩
أ - معنى الجماد.....	٥١
ب - الجزء الذي لا يتجزأ.....	٥٢
ج - الجوهر والعرض.....	٦٩
الفصل الرابع: الحيوان.....	٧٧
أ - مصادر ثقافة الجاحظ في علم الحيوان.....	٧٩
ب - السبب في تأليف الجاحظ لكتاب الحيوان.....	٨٦

الموضوع	الصفحة
ج - وصف بعض الحيوانات بين أرسطو والجاحظ..... ٨٩	
د - مقارنة بين أرسطو والجاحظ.. ١٠٠	
هـ - موقف الجاحظ من أرسطو.. ١٢٠	
الفصل الخامس: الجاحظ والعلم الحديث. ١٢٧	
أ - سيكولوجية الحيوان عند الجاحظ ١٢٩	
ب - الجاحظ ونظرية التطور..... ١٣٦	
الفصل السادس: الإنسان عند الجاحظ... ١٥٩	
أ - ما الإنسان؟..... ١٦١	
ب - العقل..... ١٦٥	
ج - النفس الإنسانية..... ١٧٢	
٤ - الإنسان كائن اجتماعي..... ١٨٢	
هـ - النزعة الإنسانية عند الجاحظ.. ١٨٦	
فهرس المصادر والمراجع..... ١٩١	
فهرس الموضوعات..... ٢٠٠	



المؤلف في سطور

د. محفوظ على حسن عزام ، من مواليد ١٢ / ٧ / ١٩٤٠
- أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد ووكيل كلية الدراسات العربية
والإسلامية للدراسات العليا والبحوث - جامعة المنيا .
المؤهلات العلمية .

- ١ - ليسانس دار العلوم عام ١٩٦٧ .
- ٢ - ماجستير في الفلسفة الإسلامية من دار العلوم ١٩٧٩ بتقدير ممتاز .
- ٣ - دكتوراه في الفلسفة الإسلامية من دار العلوم عام ١٩٨٣ بتقدير مرتبة الشرف الأولى .

تدرج في الوظائف

- ١ - عمل مدرساً للغة العربية التبرية الدينية في الفترة من ١٩٧٤ - ١٩٨٢ م . بمصر والسعودية بالمرحلة الثانوية .
- ٢ - عمل محاضراً لمادة الثقافة الإسلامية - بكلية الملك خالد العسكرية بالرياض عام ١٩٨٢ - ١٩٨٣ م .
- ٣ - عمل أستاذاً مساعداً لمادة الثقافة الإسلامية - بكلية الملك خالد العسكرية بالرياض حتى عام ١٩٨٦ م .
- ٤ - عمل مدرساً لمادة الفلسفة الإسلامية بكلية الدراسات العربية - جامعة المنيا .
- ٥ - عمل استاذاً مساعداً لمادة المذاهب المعاصرة بقسم العقيدة - بكلية أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض من عام ١٩٨٨ - ١٩٩١ م .
- ٦ - عمل استاذاً مساعداً ورئيساً لقسم الفلسفة الإسلامية - بكلية الدراسات العربية جامعة المنيا اعتباراً من ٢١ / ١٠ / ١٩٩١ م .